أدونيس

ليسَ الماءُ وحدَهُ جواباً عَنِ العَطَش



أكتوبر 2008

١١٥×٢١٥
٧.٥ × ٥-٦

كتـاب

يصدر عن مجلة دبي الثقافيـة
ويـوزع مجانـاً مع المجلة

أدونيـس

لَيْسَ الماءُ وَحْدَهُ جَواباً عَنِ العَطَش

الطبعة الأولى أكتوبر ٢٠٠٨



مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار
الصدى
للصحافة والنشر والتوزيع

عناوين المجلة

- التحريـر والادارة ـ دبي:
الإمارات العربية المتحدة ـ دبي
منطقة الصفا ـ شارع الشيخ زايد
هاتف: ٣٤٢٢٢٢٤
فاكس: ٣٤٢٢٢٢٠ ـ ٣٤٢٢٩٢٩
أبوظبي هاتف: ٠٢/٦٢٦٨٨٩٢
فاكس: ٠٢/٦٢٦٨٨٨٣

- الإعلانات والتسويق:
دبي ـ شارع الشيخ زايد ـ برج المدينة (٢)
شقة ٤٠٣
ص.ب: ٢٩٠٦٦
هاتف: ٣٣٢٠١٠٧ ـ فاكس: ٣٣٢٠١٠٦
E-mail: marketing@alsada.ae

- التوزيع والاشتراكات:
هاتف: ٣٤٩٠١٠٠
فاكس: ٣٤٩٠٦٠٠

هذا الإصدار

بقلم: سيف المري

دأبت مجلة «دبي الثقافية» منذ صدورها على استكتاب الكبار، والاحتفاء بالكبار. ولا يعني ذلك أنها لا تمدّ يدها، وتفتح صفحاتها، وتريق مدادها للجيل القادم، بل إنها في حقيقة الأمر، وجدت من أجل المستقبل. ولكن أية مجلة ثقافية، وأية ثقافة لا تحتفي بكبارها تكون ثقافة هشّة، وسريعة الزوال.

ونحن حين نقدّم هذا الإصدار الذي نعدّه باكورة إنتاجنا الثقافي للمرحلة المقبلة، فإننا نبدؤه بأحد أهم رموز التجديد في اللغة الشعرية، والخطاب الشعري، فاختيارنا للشاعر الكبير الأستاذ أدونيس لم يأتِ اعتباطاً أو من فراغ، بل عن عظيم اقتناع بما قدّمه خلال مرحلة طويلة من العطاء الثرّ، والإبداع المميز والمتميز.

ومع أنني أتشرف شخصياً بصداقتي للشاعر الكبير، إلا أنني حين أقدمه؛ فإنما أقدمه باسم صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، باعتبار سموه هو الراعي لدار الصدى، وأي

إنجاز يجب أن ينسب أولاً إلى الصاحب الحقيقي للمنجز. و«دبي الثقافية» إحدى مجلات الدار التي تحظى برعاية كريمة وغامرة من سموه، ولذا وجب أن أقدم أدونيس ليس باسمي شخصياً، وإنما باسم من يرعى ويقدّر الأعمال الجليلة، والرائدة. أما أنا وبقية الزملاء العاملين في الدار؛ فإن انتماء قلم رائع مثل قلم أدونيس، ووجوده في مقدمة الكتّاب، يُعَدّ اعترافاً منه بأن مجلة «دبي الثقافية» مجلة رائدة، وقائدة، وذات حضور.. إنه الاعتراف الرسمي الذي يشبه الاعتراف بالدول، وهذا في نظري تقدير كبير للمجلة.

ولم أكتب هذه المقدمة بغرض التقديم للكاتب؛ لأن أعماله وإصداراته قد قدّمته للمثقف عربياً وعالمياً، ولكنني أقدم فكرة الكتاب؛ حيث ستشرع «دبي الثقافية»، بدءاً من هذا العدد في تقديم كتاب مجاني مع كل عدد منها، لكاتب عربي مرموق، على أن تكون المادة لم يسبق إصدارها في كتاب. وقد وقع الاختيار على أصحاب التجارب العميقة والمؤثّرة ليكونوا ضمن كوكبة الأسماء التالية، ونحن في انتظار تعليقات وردود وملاحظات المثقفين العرب، وكل ما نتمناه أن تحظى هذه الإصدارات بما تستحقه من عناية واهتمام من قبل القارئ العربي.

وإذ تسجل «دبي الثقافية» حضوراً جديداً،

وتنطلق إلى فضاءات جديدة، وسماوات مفتوحة من الإبداع والتألق، فإن كل ما قدمناه ونقدمه، ليس له سوى هدف واحد هو إثراء الساحة العربية الثقافية، والمشاركة في خلق واقع ثقافي جديد تكون فيه السيادة، والريادة للكلمة الصادقة الجريئة، والمعبّرة عن آلام وآمال الأمة.

فإذا وفقنا، فهو بسبب دعمكم أيها القراء الكرام، وإذا أخفقنا، فنرجو أن تلتمسوا لنا العذر على الإخفاق والتقصير.



هذا الكتاب.. والهدية الثمينة

بقلم: ناصر عراق

بهذا الكتاب تدخل مجلة «دبي الثقافية» مرحلة جديدة وفارقة من عمرها القصير، مرحلة تؤكد فيها الانحياز التام للقيم الفضلى في الفكر والثقافة والإبداع، حيث إنها المرة الأولى، فيما أظن، التي تُقْدِم فيها مطبوعة عربية على إصدار كتاب بشكل منتظم وتوزعه مجاناً مع كل عدد من أعدادها.

صحيح أن كتاب «دبي الثقافية» قد صدر منذ نحو تسعة أعوام من قبل، بصورة غير منتظمة تحت اسم كتاب «الصدى» في البداية، لكن مع هذا العدد سيصبح الصدور منتظماً بعد أن صارت السلسلة تحمل اسم كتاب «دبي الثقافية»، مع صدور العدد الأول من مجلة «دبي الثقافية» في مطلع أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٤!

نعم.. كان حلماً قديماً يراود الأستاذ سيف المري المدير العام رئيس التحرير، منذ سنوات، وها هي الفرصة واتتنا لنقدّم للثقافة العربية هذا الحلم/ الهدية؛ إذ أعتقد أنه لا يوجد أفضل من كتاب يمكن تقديمه للقارئ العربي كل شهر هدية مجانية، اعترافاً بقيمة الفكر والثقافة والإبداع في

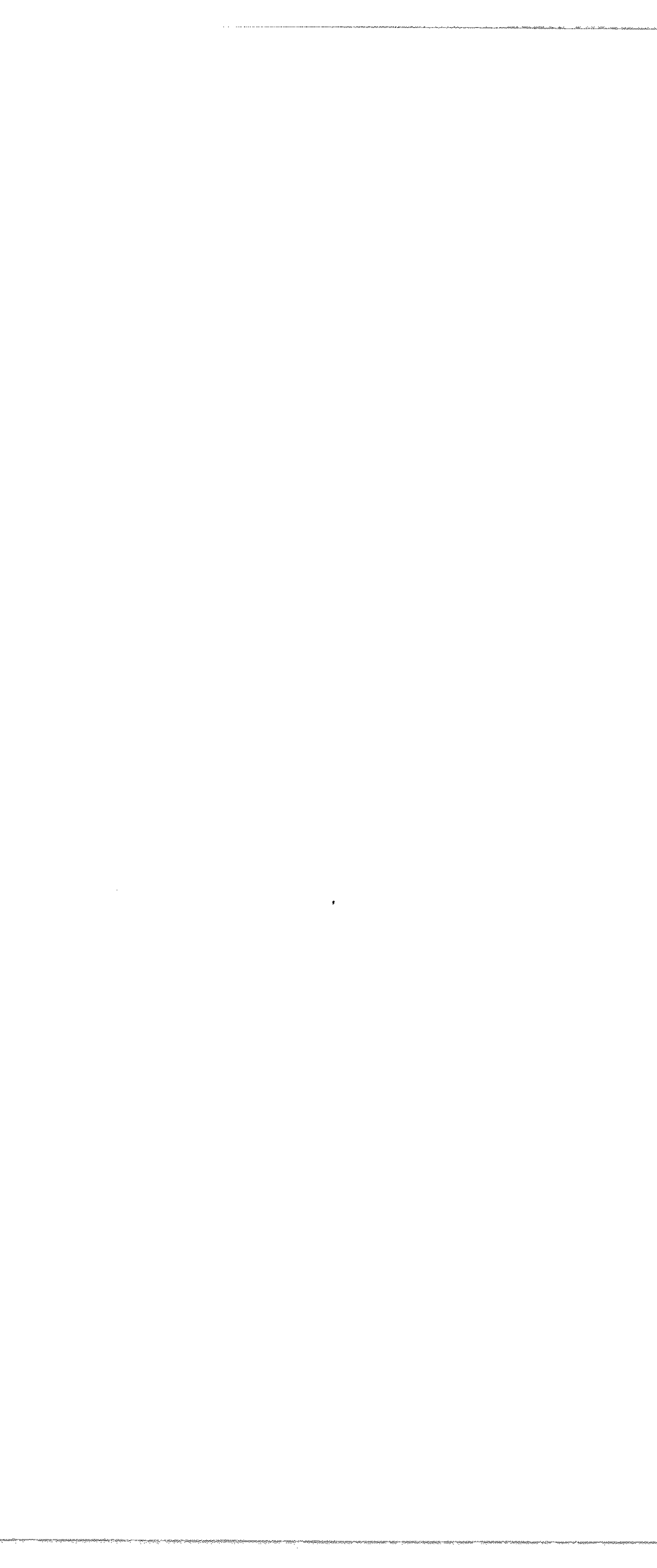
نهضة الأمم، وترسيخاً لمبدأ قديم نسيناه، وهو أن الثقافة الجادة والممتعة يجب أن تكون في متناول الجميع بأبخس الأثمان، حتى تؤتيَ أكلها في زمن شاعت فيه أفكار متشددة تخاصم العقل والمنطق، وآراء مغلوطة تحارب الحرية والخيال، وقيم مرفوضة تفسد الذوق وتخرب الوجدان!

إن أحلامنا باتساع الفضاء، ورغبتنا في أن يكون للمثقف والمبدع دور ملموس في قيادة هذه الأمة العربية، رغبة أكيدة وصحيحة وضرورية، لذا، نحن نعتقد أن هذا الإصدار هو باكورة عمل عظيم نأمل أن ننجزه بإتقان حتى نحافظ على ثقة القارئ فيما نقدم، وهي ثقة عزيزة نفخر ونعتز بها.

لذا، يسعدنا أن نستقبل في هذه السلسلة كافة المبدعين العرب.. كباراً وشباباً، شعراء وقاصين، نقاداً ومفكرين، تشكيليين ومسرحيين ومترجمين..إلخ.

وهاهو الشاعر العربي الكبير الأستاذ أدونيس يفتتح هذه السلسلة التي نرجو أن توصل لقيم الإبداع الجميل، والفن المؤثّر بالضبط، كما نحلم أن تعمق شعورنا بقيم الحق والخير والجمال.





أدونيس

لَيْسَ الْمَاءُ وَحْدَهُ جَوَاباً عَنِ الْعَطَش



«1»

«غيــوم»





«أ»

غيمةٌ فوقَ نيويورك

هذه الليلة
يُشعل القمرُ شموعه بين قبور الأطفال،
فيما تتمدّدُ ريحٌ غامضة
على كتفي وردةٌ تكاد أن تذبل.

هل يحقُّ لي أن أتخيّل
أنّني أمرُّ تحت شبّاك البيت
الذي وُلدت فيه؟
ولمن أوجّه هذا السؤال، يا هذه الرّيح؟



تلك الليّلة في نيويورك،

كنتُ، من أَيّة نافذةٍ نظرت،

أو من أيّة زاوية،

أرى إلى القدس، كأنّني أراها

تحت سماءٍ لا وطنَ لها

غير كرسيٍّ عائمٍ، وأرضٍ تتموّج:

الكرسيّ لِلّه، والأرض للجحيم.

تلك اللّيلة،

أَحسَسْتُ أنَّ شَمسي العربيّة

عرجاءُ خرساءُ.

وَخُيِّلَ إليّ:

كلّ شيء يريد أن يظهرَ

في صورةٍ مختلفة -

هل تَرون كيف يتحوّل البحر الأحمر

إلى هرمٍ تنام فيه اللّغة؟

وكيف ينقلب النّاس:
لا يعيشون، لا يموتون
من أجل راحةِ الرّأس،
بل من أجل راحةِ اللّغة.

وكانت الحَداثةُ خاتماً
يتلألأُ في عالَمٍ
يتحوّل إلى إصبَعٍ إلكترونيّةٍ
في يَدِ نيويورك،
فيما تُواصِل زِيزَانُ الحضارةِ
عَزْفَها القاتِلَ في أذنيّ.

ورأيتُ وَطاويطَ
تلبَسُ خُوذَ القادَة
من أيّة سلالةٍ انحدروا.
كلٌّ منهم يتوسَّد ثَدْيَ مرضعةٍ سماويّةٍ،

فيما تغسلُ الصّواريخُ أقدامَها
بماء الملائكة.

أنتَ، يا مَن تدير وجهكَ نحو الشّرق
في ضَوْء تلك الوطَاويط،
هل تظنُ حَقّاً
أنّ الشَّمسَ سَتُرضِعُ أطفالَها غداً؟
كيف حدَث أَنْ صار الوقتُ
يشنقُ المكانَ،
مَتَى شاءَ، وكيفما شاء؟
رُبّما لم يعد هذا العالَمُ
في حاجةٍ إلاّ إلى ضَوْءِ الذّرّة.
كيف تريدين مِنّي، إذاً، أيتّها الأرض،
أن أفهمَ دَورانَكِ حول الشّمس؟
وانْطمسي، أيّتها الحواسّ ،
لا أقولُ ذلك، انتصاراً لكِ،

أقوله لكي أعزّيَ الأَبجديّة.

تَعرفين:

وُعِدْتُ بالجحيم،

كما يؤكّد أعداؤكِ الفقهاء،

لهذا قَرّرْت أن ألمسَ الجنّة،

لكن بغير أصابعي،

وأن أتحدّثَ إليها،

لكن بصوتٍ غَيْرِ صوتي ،

في اللَّيل،

قربَ جدارٍ عالٍ

فيما يَخُبُّ حولي حصانٌ رومانيّ

واضِعاً على رأسهِ

خوذةَ هذا العالم،

وفيما تلمعُ نجومٌ

في عُنقِ كلٍّ منها حبْلٌ أحمر.



كانت القدسُ تجدل شَعْرَها

لكي تتسلّقَ الكواكب،

وكان المارقون يَصرخون:

للجيوش آلهةٌ

ليست للحقول وليست للينابيع.

في القدسِ، كدتُ أن أتبرّكَ بِحَجرٍ

يتحوّل إلى جبينٍ للكون،

بجدارٍ

يَصيرُ سُلّماً للفضاءات.

لكن،

هو ذا أرَى المكان كمثلِ الحِسَاء،

وأرَى ملائكةً

يسجنون الهواءَ ويحاربون العُشب.

أوه!

ليسَ في حبِّ السّماء للأرضِ،

غيرُ القبور.

غَيّرتُ كثيراً من الطّرق في السَّفَر
إلى ما ظننتُ أَنّه المستقبل.
بَدّلت عصَايَ
والوردةَ التي وضعها الحبُّ، يوماً،
تحت وسادتي.
بَدّلتُ لهجاتٍ كثيرةً في لُغَةِ النَّبْضِ—
تلك التي تتحدّث بها هذه الآلة الصّامتة
التي نُسميّها القلب.
بَدّلتُ سمائيَ نفسَها وخطواتيَ نفسها،
غير أَنّني
كنت أرَى دائماً
أنّ الهاويةَ أمامي.
أوه!
لماذا، عندما بدَأ الإنسانُ



يعمل لكي يُصبح إلّهاً،

بدأ يعلو،

وعندما وصلَ إلى ما ظَنَّ أَنّها غايَتُه،

أخذَ يَنْحدر؟

أوه!

يكاد علمي أن يقتلَني،

وخيرٌ لي أن أنتميَ إلى كلّ ما لا أَراه.

رَمْلٌ يُهاجِمُ الغَيْم

والأَسْلاكُ الشائكة

تغوصُ أكثرَ فأكثرَ في كَبدِ الأرض.

هل عليَّ، إذاً،

أَن أمتطيَ مِدفعاً لكي أَصِلَ إلى نفسي؟

لم أكن أصدّق

أن السّماءَ كُوّرت لكي تخنقَ الأرض،

ولم أعد أعرف

من أيّ غصنٍ تجيء هذه الثّمرة،

أو من أيّ فَمٍ ينزل في أذنيّ صوت السّماء؟

وماذا أقول عن خوذةٍ
تؤكّد أَنّها ياسَمينةٌ
وعن بندقيّةٍ
تُبَشّر أنها شجرةٌ من أشجار الجنّة؟

وكيف أَشْرَحُ لماء التّاريخ
هذا الدَّوْرَقَ الذي يُسمَّى الإنسان؟

مادُمْتَ، أيّها الأفقُ،
لا تعرف أن تجيبَ عن أَسْئِلتي البسيطة،
اسمْح لي أن أعطيكَ اسْماً آخر.
أعرف أَنّ هذا أَمْرٌ لا يَهُمُّ
غيرَ المرأة ،
تلك التي تدخل الآنَ

إلى سَريري.

هكذا، أعرفُ أَنَّنـا

وفقـاً لِلتّقـاويم ،

لِلحظّ في الصَّحْوِ

أو للـحظّ في المطر،

ووفقـاً لِلرّيـح،

سنـخرج لملاقـاة المستقبل

في ثيـابٍ مِن القَشّ.

هكذا، أنتظرُ أن ينشقّ القمر،

بعد هُنيهةٍ

في جَوْفِ امرأةٍ عـاشقـة.

ومـاذا، إذاً؟

تُرانيَ لم أُولَد بـعد؟

تُراهـا حيـاتـيَ

ليست إلاّ تمرّنـاً على الولادة؟

«ب»

غيمةٌ فوق البحر الميت

قَبْلَ أن أقرأَ أيّة جريدةٍ

من جرائد عَمّان، الصباحية،

قبل أن أنطلقَ، برفقة صديقيَّ: حيدر وإيمان،

في اتّجاه البحر الميت،

أخذت وردةً وقَبّلتُها.

لم يكن للوردة شفتان،

كان لها عنقٌ، خُيّل إليّ أَنّه ينحني

على طفلٍ قُتِلَ في أحضان الفَجْر،

في الجهة الثانية من هذا البحر.



كنت فيما أُقَبّلها، أَستمعُ إليها:
سوف ترى خوذاً تجلس على رؤوس الشّجر.
سوف ترى أمجاداً وحصوناً
ليست إلاّ كلماتٍ في معاجم الرّيح.
سوف ترى كيف يَصيرُ الدَّمُ
اسْماً لآدِم.

*

خَيْطٌ أَوْهَنُ من بَيْتِ عنكبوتٍ
يُؤَرجِحُ رأسَ الواقع.

*

تَسير القَهْقَرى،
فيما يُخَيَّلُ أَنّك تَسيرُ إلى الأمام.

*

رائحةُ عشبٍ
تحملهُ نِياقٌ حُبْلى.

*

ماذا مضَى منكَ، أيّها الماضي؟

ما هذه الغُرف العالية على ضِفافك؟

ما هذه السّلالم التي تقطرُ دماً؟

*

أَحْياءٌ –

يعجنون الموتى، ويَخبزونهم.

*

زمَنٌ ،

ضَيْفٌ على الغُبار.

*

الهواء نفسُه جدارٌ

ولا ثقبَ فيه.

*

يضحك الوقتُ

فيما تبكي الأشجارُ والنّباتات.

*

ليس صمتُ الحياة، هنا، هو الذي يقول الحقيقة.
يقولُها صمتُ الموت.

*

في كلّ ما لا يمكن فهمه،
أجدُ، غالباً،
كلّ ما يُساعدني على الفَهْم.

*

وضَعَنا أسلافُنا ووارثوهم
حيث يتعذّر النُّطْقُ بالحقّ،
حيث يتعذّر النّطق إلاّ بالحقّ!

*

أيّتها البلادُ التي أنتمي إليها،
قلت مرّةً عنك:
أنتِ البلاد الوحيدة التي لا أعرفُها.
ولم أُخطِئ.

*

لا ثقافةَ هنا

إلاّ ثقافةُ الأَثَر.

*

في الفضاء، هنا،

كلماتٌ تتحدّث عن الألوهة،

لكن تَبدو

كأنّها تعيش في رُعْبٍ دائم.

*

لم يحدث مرّةً أن اتّفقْتُ مع ظِلّي

كمثل ما اتّفقنا

في الطّريق إلى البحر الميت.

*

دَخلْتُ في مدرسة البحر الميت

حاملاً أسئلتي،

وخرجت حاملاً جِراحي.

*

يُقْشَرُ المعنى كما تُقْشَر البصَلة،

لكن، كيف تُقْشَرُ الكلمات؟

*

لا يَفْعل اليَبابُ هنا

إلاّ البحثَ عن قارئٍ أخضر.

*

طيورٌ من الورَق

وأخرى بلاستيكيّة،

تتطايَر في رعاية الغبار.

*

الماءُ

يلبس قميصاً من النّار.

متى سَتَسْجُد، أيّها القمر،

لهذا الفلَكِ الذي ينطمسُ فيه المعنى؟

*

أمامَ كلّ زَهْرةٍ، كمينٌ،

*

نَعْشٌ دائمٌ، يتَنقّلُ
بين يَديْ السّماء.

*

نسير، حيدر وإيمان وأنا، في خرائب النّبوّات،
وكنتُ تجرّأت، في طريقنا إلى البحر الميت،
أن أسأل السّماء فوقَنا، لكن هَمْساً:
لماذا أَغلقتِ أبوابكِ، وأنتِ في أوج الطّفولة؟
أليس عندكِ بابٌ آخر لكلامٍ آخر؟
وكنتُ تجرّأتُ، وسألت الكنيسة القديمة التي تقومُ
على أنقاض هيكلٍ أكثر قدماً، في جبل نِيبُو:
لماذا لاتزالين تتجاهلينَ أنّ بعضَ الكلام
يموتُ هو كذلك؟
أَنّ العقلَ الذي قاله قد يُصبح فُرْناً أو سيفاً؟
أنّ في التّرابِ حِبْراً خَاصّاً
لكتابة الرّيح وأخطائِها؟
وتمتمت في أذُنِ الكنيسة:



ها هيَ النّارُ تَصِلُ إليكِ،

وسوف ترينَ العَصْرَ يَتَفتَّتُ،

والأيّامَ تُجَرُّ بحبالٍ سَوْداء.

ومَن أولئكَ البشَرُ

الذين يضربونَ الماءَ بِعصيِّهم لكي يَتحوَّلَ

إلى بساطٍ يسيرون عليه في طريقهم إلى اللّه؟

ومَن أولئك الذين يموتون لا لِشيءٍ

إلاّ لتمجيد الموت؟

وسمعت صديقيّ يَتحاوران:

– الدّماغ هو العبد، واليَدُ هي الأَميرة.

– الرّوح، لا المادّة، هي التي تخون البيتَ

الذي تقيم فيه.

– أكيدٌ أَنّ السّماءَ هي نفسُها

آخذةٌ في أَنْ تصيرَ وَرَقاً.

*

تِلالٌ ليس في حجارتها غيرُ الملائكة.
ملائكةٌ ليس في وجوهها غير النّار.

*

طحالِبُ –
تكسوها شظايا الهبوط نحو الأسفل،
ويَرْويها دَمُ الصّعود إلى الأَعْلى.

*

تُصغي الكَرْمَةُ هنا، والخمرة هي التي تقرأ.
قراءة طبيعيّة لِمَا وراء الطّبيعة،
قراءة هي، وحدَها، تعرف عددَ الحروف التي
تتكوّن منها
أسماء الأشياء،
تلك التي لم تتكوّن بعد.
هنا، ليس للخبز إلا سؤالان:
ماذا يفعل عطشانٌ، عطشه هو اللّه نفسه؟
ما تكون الوردَةُ



إن لم تكن سُرّة امرأةٍ عاشقة؟

*

مَدىً أحمر يفتح خاصرته لرأس البحر الميت،

لونهُ لونُ كَبْشٍ مذبوح:

القرنان مَلاكان،

والجسمُ غابَةٌ من السّلاسل.

*

الإنسانُ هنا لغةٌ في الواحد الأحد.

هكذا يبدو كأنّه خُلِق بِالكلام،

مِنِ الكلام،

في سريرٍ من الكلام.

في كلّ كلمةٍ جسمٌ يعرُج.

*

البحر الميت:

مِلْحٌ،

لحمٌ،

حلمٌ.

ثلاثة حروف. ثلاث كلمات.

كلٌّ منها كابوسٌ يُقيم في رأسِ كلٍّ منها.

*

أحياناً، تغذّي الرّغبة أكثر مما يفعل الخبز،

لكن، من أنا، أيها الزَّبد، لكي أهيمنَ على وجه البَحْر؟

*

ظلامٌ في أوج الشّمس:

تشعر، فيما ترَى، أنّك لا ترَى.



«جـ»

غيمةٌ فوق قرطبة

تلك اللّيلة (*)

اختلطَ عليّ الأَمْر:

لم أعد أميّز، فيما أُتابِع النّظرَ إلى أمواج الرَّقص،

بين ما يُسمّى فرحاً أو عرساً،

(*) في قرطبة، ليلة ٢١ نيسان (أبريل) ٢٠٠٧، حيث حضرت في مسرحها الكبير باليه فلامنكو لفرقة «باليه فلامنكو الأندلسية» بإدارة كريستينا هويوس، المغنية وراقصة الفلامنكو المشهورة. وهذا العمل الفني مستوحىً من ديوان لوركا «رومانسيرو جيتان» (الدّيوان الغجريّ).



وما يُسمّى حزناً أو مأتماً.

بَدا الموتُ كأنّه السّحر الذي يفتح الأبوابَ المغلقة،

وبَدتِ الحياةُ

كأنّها غيومٌ من البكاء،

لا تُمْطِرُ إلاّ الفرَح.

وامتزجت في أعماقيَ الأندلسُ بالنّشوة التي يولّدها رقص الفلامنكو، وبالغبطة التي تنبعث من شعر لوركا: عَبقُ التاريخ الفنّي الأَندلسيّ، ذائباً شاهِداً، في رقص الفلامنكو كما يفصح عنه الجسَدُ الإنسانيّ البديع، وفي الشّعر كما يتفجّر في لغة لوركا.

وهي سعادَةٌ أعادتني إلى العهد الذي تعرّفت فيه إلى شعر هذا الشاعر. تذكّرت كيف كان يُخيّل إليَّ في أثناء قراءتي أَنّ ثَمّة أصواتاً لأشخاصٍ غير مرئيين تحيط بي، وأُصغي إليها، تَنبعث من شعره:

– هل الحقلُ هو الذي ابتكر الثّور؟

– البقرة، في كلّ حالٍ، هي التي ابتكرت قَرْنَيْ الثّور.

– كانت الفتاة التي تُحبّني، تنتظرني دائماً في مكانٍ عالٍ، لا يبعد عن حدود السّماء إلاّ بضعَ خطواتٍ مِن بيتها.

– في الحبّ، اكتشفتُ أنّ للقمر سُلطاناً عليَّ، أنا أيضاً. وأنّ لِلَّيل أبواباً ونوافذَ لا يفتحها إلاّ لمن يعرفُ كيف يُقيم عروشه الحميمة الخاصّة في المخيّلة، وفي الأحشاء وشهَواتِها.

– انظرْ كيف تكنسُ العاصفةُ الغبار عن الدّروب إلى الحبّ.

– كان الخريفُ، ذلك الخريف أعمى. غير أنّه، قبل رحيله، سَلَّم على بيتِ لوركا في غَرْناطهْ، وملأَ الحقولَ حوله بخطوطٍ هندسيّة كان يرسمها بريشة الرّيح.

– هل تعرف من أين يجيء هذا اللّيلُ إلى قرطبة،



حامِلاً هذه الرّائحةَ مِن الحبّ والشّعر والجِنّ؟

*

قَبل هذه اللَّيلة العالية في «مسرح قرطبة الكبير»، كنت قد زرْتُ أكثر من مرّةٍ، الجامعَ – الأعجوبة الهندسيّة – الفنيّة: جامع قرطبة، توقّفت، بخاصّةٍ، عند عبقريّةِ اليَدِ، مقرونةً بعبقريّة المخيِّلة.

باللاّشكل، يتمّ البحث، إسلاميّاً، عن المَعْنى.

بالشّكل، يتمّ البحث، مسيحيّاً، عن المعنى.

في فضاءٍ واحدٍ – مكانٍ واحد.

لا تَتردَّدُ العين الفنّية لحظةً في انحيازها الكامل إلى اللاَّشكل، ذلك أنّ المادّة فيه تبدو حركةً بلا نهاية. ويبدو فيه المعنى أفقاً بلا حدّ.

اللاَّنهاية هنا لا ترسمها المخيّلة وحدَها. لا يرسمها التوهّم. المادّة نفسها هي التي تفجّرها. وترسمها أبجديّة الحجر.

كأنّ الجامع، في هذا المنظور، سماءٌ على الأرض. ولهذه السّماء أبراجٌ، ولها أقواسٌ وأَعْمدة. هكذا يبدو كمثل كوكبٍ من الأجنحة. ويبدو ما أُدْخِلَ عليهِ من «أشكالٍ» باسم الكنيسة، كأنّه حَشْدُ أقفاصٍ وأغلالٍ. إنّها أشكالٌ - إضافاتٌ في غير مكانها - «جسداً»، و«روحاً». وما أبعدَها عن بَهَاءِ المسيح.

*

قرطبة هي، بالنسبة إليَّ، فنّ. ولم يَبْقَ للحضور العربيّ - الإسلاميّ فيها، أيّ مَعْنى عظيم، خارجَ الفنّ.

ربّما لهذا شغلتني، على نَحْوٍ خاصّ، في أثناء إقامتي في قرطبة، بضعةَ أيّام، مسألةُ «الجسم» الإنسانيّ، منظوراً إليه، بوصفه «فَنّاً». وكان رقص الفلامنكو سَبباً مباشراً في إثارة هذه المسألة.

لماذا يبدو «الجسمُ» في الثقافة العربية -

الإسلامية، مرذولاً؟ لماذا «يُدَمَّر» يوميّاً، باستخفافٍ واحتقارٍ، وعلى نَحْوٍ منظَّم، بِشكلٍ أو آخر؟

هكذا «نفكّر» كما لو أنّ الجسم غيرُ موجودٍ – لا واقعاً، ولا رَمْزاً. وهو مِمّا أدَّى إلى عدم الاكتراث بخسارتهِ، أو موته. بل مِمّا أَدّى إلى أن يُصبح قتلُهُ مَزِيّةً. أقتلُ الجسم: إذاً، أنا موجود!

لا أهميّةَ، في هذه الثقافة، لهذا الشيء الذي هو «جسم» الإنسان. وترجمة ذلك، عملياً، هي أنّه لا معنى، ولا قيمة للوجود، وجود الشّخص، في العالم، أو في «الدّنيا» وفقاً لِلتّعبير العربيّ. هكذا «يُقتَلُ»، اليوم، بين المحيط والخليج، كأنه مجرَّدُ «مادّةٍ» تافهة: لا علاقة له بالحبّ، والأمومة، والأبوّة، والصّداقة، والفنّ. كأنّه مجرَّدُ لُعْبةٍ: يُقطع رأسُها، لِسانُها. تُنْتَزَعُ عيناها تُحوّل إلى لُغْمٍ. تُداسُ بالأقدام، بمتعةٍ، ولَذّة.

من أينَ يَجيء هذا الفَصلُ بين الشّخص وجسمهِ؟

من أين تَجيء هذه النّظرة إلى الجسم كأنّه مجرّدُ آلةٍ، أو مجرَّدُ وظيفةٍ بيولوجيّة؟

وكيف يَغيبُ، أو يُغَيَّبُ النّظَرُ إليه بِوصفه، على العكس، «عمودَ» الإنسان؟ الإنسانُ غيرُ موجودٍ إلاّ بِفَضْلِ جسمه. بجسمه يُعبِّر عَنْ ذاتيّتهِ، وعَمّا هُوَ بين الأجسام، فالعلامة الأولى على وجود الإنسانِ هي جسمه. ففي «قَتْلهِ» تُقتل «ماديّة» اللّغة، وماديّة الثقافة:

لا يبقى إلاّ اللَّغْو!

هكذا يبدو أن احتقارَ الجسم ليس، في عمقه، إلاّ احتقاراً للإنسان نفسه.

*

يكفي، أيها الحاضِرُ العربيّ، أن «تَنسى» قرطبةَ – الجِسْمَ والفنّ. يكفي أن «تكتب» تاريخكَ بالقَتْل!

وانظرْ إلى الخريطة العربيّة – الإسلاميّة: جسمُها



كوكبٌ ضَخْمٌ، لكنّ صوتَها صوت عصفورٍ يكاد أن يختنق.

«د»

غيمةٌ فوق الإسكندريّة

تُواصلُ الإسكندريّة خصامَها مع شُرَطيّ الزَّمن،
كيف، دون ذلك،
تَطلعُ من بين نَهديها،
شمسٌ كشمسها، الآن؟

*

في الفندق، هيلنان – فلسطين، على الشاطئ، قال للحبّ:
«اخرجْ مِن أراغنِ السّماء،
اضطرِبْ حائراً كغُصنٍ في حضرة العاصفة.



بعد ذلك، خذني إليك».

كانت الأمواج تبدو كأنّها تتهيَّأُ لكي تلطمَ خاصرةَ غرفته. ولم يكنْ بين يديه أَيَّةُ زَهْرةٍ تنتسبُ إلى أَخِيناتُون، ولا أيّة عُشْبةٍ من أعشابه.

غير أنّ السّريرَ كان رغبةً، وكان الوقْت امرأةً.

اعصفْ، اعصفْ أَيُّها الوَلَهُ في أحشائه.

أصغى طويلاً إلى البَحْر يقرأ عليه تاريخَ الشّواطِئ، وإلى الشّواطئ تقرأ عليه تاريخ الماء.

*

قبل أن ينامَ، رأى إلى الإسكندريّة كيف تخلَعُ في اللّيل قُمصانَها كلَّها،

إلاّ واحداً: بطليموس الأوّل.

عندما رآها تستيقظ في الصّباح، شعرَ كأنَّ شرايين الأرض ترقصُ في جسدها.

وتذكَّر مُدناً نَسيت حَتّى مَهدَها الأوّل.

انتحبي، إذاً، واعرُجي أيّتها المدن

في ظلّ حاكم السّماءِ،

الذي يُقْفِلُ أبوابَهُ

بالمفاتيح نفسها التي يصوغُها حاكم الأرض.

*

للهواء حكمةٌ يَثِقُ بها هذا الشّاعر.

*

شَفتَاهُ تتّحدانِ ضدّ قَبائلِ الكلام،

وصمتُه أَخٌ لِلضّوء.

عطلة الأسبوع

أ – تدخل امرأةٌ إلى السُّوق،

كأنّها تخرج من بيتٍ سِرّيٍّ لِلَّيل.

ب– الخبزُ، في السّاحةِ، جائعٌ هو كذلكِ.

ج – تَعْتصِمُ الحواسُّ في خَندقٍ يُسمّى الرّغبة.

د– رجلٌ في المقهى: عُرْجونٌ أُنْثَويّ.

هـ – امرأةٌ تعبرُ أمام المقهى. ليس في خطواتِها

غيرُ العشق.

يبدو كأنّ في جدائِلها يَدَيْ عاشقٍ خفيّ.

و– صَخَبٌ في المقهى،

يكاد أن يلتهمَ حتّى قوائمَ الكراسي.

ز – لا تَشرَبْ. لنا موعدٌ آخَرُ مع شرابٍ آخر.

ح – طائِرٌ يَحُكّ سُرّة الحديقة.

ط – شَيخٌ أمام تمثال سعد زغلول،

يُمسك بيد الرّيح.

ي – يَدُ النَّخيلِ جِسْرٌ ممدودٌ لعبور الشَّمس.

تعبت يَدُ النّخيل.

*

إسكندريّة، إسكندريّة،

أين ، إذاً، كفافيس؟

تقدّم، أيّها الشّاعر.

ينتظرك الحبّ على ورقةٍ، على كرسيّ، في مَقْهى،

في منتصف شارعٍ غامضٍ، في آخر اللّيل –

اللّيل الذي لا آخرَ له.

*

رسالة

«... ربّما، سيكون من الأفضل أن تسألي شجرةً أو نبعاً: ما الحبّ؟ في أيّة حالٍ، يبدو البحرُ هنا، بحر الإسكندريّة، كمثل سماءٍ تنزلُ إلى الأرض على دَرَج الحبّ».

*

رسالة

«... لو نَظَرْتِ إليّ الآنَ لرأيتِ فِيّ غابةً ،

لا من الشّجَر، بل من الموج،

وَلَما رأيتِ فيها إلاّ أفراساً جامحةً

تُمسك بِأيْدي أَطفالٍ

يمزجون بين أجسامهم وَحرير الفضاء.

أنظر إليكِ، الآن، وأسألُكِ:

أيَّةُ غابةٍ أنتِ؟».

*

هنا، في الإسكندريّة كذلك،

حجابُ البَصر عشيقٌ لحجابِ البصيرة.

هنا كذلك،

يجازف الدّمع بعينيه،

وَالحسرةُ تلْتهِمُ الحنجرة.

*

يمشي الموج، هذا الصّباحَ،

على رؤوسِ أصابعه.

*

وصلت الشمس إلى الحيّ التّركيّ،

وأخذت تمزّق الأسمنت،

كما لو أنّها تمزّق أكفاناً.

*

يَوْمٌ – يَرتسم على الجدران في شارع فرنسا،

كمثل مُلاءَةٍ سَوداء شفّافة.

الشّارع لوحةٌ ضخمةٌ

يتنقّل فيها ضيوفٌ مِن كلّ صَوْبٍ،

كأنّهم يتنقّلون في غُرَفٍ من الغَيم.

*

جامع أبوالعبّاس المُرْسي –

لم أفهم سؤالَك، أيّها الجامع، وها أنا أكرّره:

هل الصَّلاةُ، هنا،

معنىً مؤنَّثٌ لاسمٍ مُذكَّر؟

*

جامع البوصيري –

على بابهِ رجلٌ كمثل عصاً طويلة،

يُصدّق أنّها سَتنقلب إلى حَيّة.

*

هَل قلبُ الإسكندريّة سائِلٌ –

حيناً، هواءً، وحيناً، ماءً؟

*



كوم الدِّكّة

شارع سيّد درويش
الغرفة المتهدّمة التي كان يسكن فيها،
المَقْهى – «بُورصة الشيخ سيّد درويش البحر»،
الشاعر ابن نُبَاتة، الشّارع الذي يحمل اسمه،
هذه كلّها أصواتٌ تَصرخ:
أرأيتَ، أيّها الهدهد، كيف يعشق سليمان؟
أسمعتَ بلقيس وهي تسأل سليمان:
«ما لونُ الرّبّ؟»
أصواتٌ لم يسمعها لورنس داريل، ولا فندق
سيسيل.
يا سيّد درويش،
مثلك، في شارعكَ الآن، أتذكّر
كيف كان الملوك يمرّون تحت أسنان بلقيس
كمثل اللُّبَان،

وكيف كانت السَّماواتُ

تتقلَّب في سريرها.

لكن، أيّها السّيّد،

لماذا يغلق الفضاء أبوابه، اليوم؟

اسمحْ لي أن أمسحَ العَرَقَ عن جبينك.

اسمحْ لي

أن أغسلَ بصوتكَ وموسيقاك،

أيضاً وأَيَضاً،

«كُوم الدكّة».

*

رسالة

«... في فندق هيلنان – فلسطين،

أكتب لا أكتب –

فضاءُ العروبة ورَقٌ، وفي الكتابة احمرارٌ

كأنّه يَسيل دافقاً من شَمْسٍ تَمسح بِوَجْهها

وجهَ فلسطين

محفوفاً بصدر بغدادَ حيناً،

وحيناً بجسد بيروت.

تُرى، ألن تعرفَ سماء العرب كيف تُظلِّلُ شيئاً آخرَ

لا يُظَلِّلُ القَتْل؟

أكتب، لا أكتب.

أصغي إلى الموج:

«كلاّ، ليس الماء وحده، جواباً عن العطش.

نعم، الهويّة فضاءٌ، لا جدارٌ ولا سيف».

ها هي الشّمس في الإسكندريّة

تبدو كأنّها الأخت الكبرى لكليوباطرة،

وكان قمر اللّيلة الماضية يبدو

كأنّه الأخ الأصغر للإسكندر.

أكتب، لا أكتب.

غيبٌ يَزْدرِدُ الواقع،

واقِعٌ يَزْدرِدُ بعضه بَعضاً.

... في شوارعَ لاتزال تَتتلمذُ على كتابِ النّجوم،

في مدُنٍ لاتزال مأخوذةً بِخَشْخَاشِ القَدَر».



تمثال لرأس الإسكندر

جَذْر الإسكندر لا في التّراب، لا في الكتاب. جذره في المخيّلة:

«لا نريد هذه المعسكرات.

لا نريد تلك الأسلحة.

لا نريد غزواً، ولا فتوحات.

تعبت الرّيح من كَنْسِ أَشلائِنا».

كان رأس الإسكندر، الذي رفعه نَحّات يونانيٌّ حديث، في صَدْر مكتبة الإسكندرية،

يُصغي لِشَطْحِ هذه المُخيّلة.

– أتريد، يا سيّدي، أن تُشاهدَ كيف ترقص الذَّرَّة؟

– ...

لا مكانَ للجدران العازلة، على الأرض، في عَيني الإسكندر.

لا مكان إلاّ لِلطّرق والنّوافذ والأبواب المُشرَعة.

لا يرَى الإسكندر نفسه إلاَ بحراً في صورة الأرض.

الكون يرسم حدوده بأهدابه،

والأرض كمثل امرأةٍ توشوشهُ:

أحبّ أنوثتَك.

باسم الإسكندر،

يؤكّد الماء في الإسكندريّة،

أَنّ جُرْمَ السَّماءِ طُفَيْليٌّ يكاد أن يَقضيَ على الأرض

– الأمّ.



قلعة قايتباي

يكاد البحر في قلعة قايتباي أن يُعطيَ لشعوبه

أقراصاً منوِّمةً

فيما يُوقِظ حشَراتِ التاريخ.

ويكاد أن يقول: عادَت أورامُ الفلَك.

هل سَتُصغي القلاعُ أخيراً إلى نَبوءةِ الخبز؟

*

تمثال سعد زغلول

يَخْترق التّمثالُ الشاطئَ بضوئهِ، فاتحاً ذراعيه.

الأجنحة وحدَها تعرف كيف تَزن الجبالَ

التي حملَها على كتفيه.

يُخيّل إليّ أَنّ محمود مختار لايزال يَسنّ إزميلَه

بصخب المَوْج.

تُرى، هل في الشاطئ بخورٌ آخَر؟

أهناك بَحّارةٌ آخرون؟

النّهار غيبٌ،

وليلٌ آخر هو اللّيل.

كأنّ الأنبياءَ حقول خَصْبة،

وكأنّ النّبوءةَ زهرةٌ ذابلة.

يا عُشّاق الإسكندريّة،

أتحدّث عن جراحكم فيها،

أتحدّث عن جراحها فيكم.



الجراحُ نجومٌ لا تعرفُ الأُفول.

*

مسجد العطّارين/
سوق العطّارين

لِلمئذنة صوتٌ يفتحُ طريقاً سرّيّةً إلى
سُوقِ العَطّارين.
سِرْتُ على هذه الطّريق،
وحاوَلتُ أن أعيِّدَ أعيادَها.
لِلعطور هنا، هي كذلك،
رسالاتٌ ورسُلٌ، ولها مراكبُ ومرافئ.
وللواقع هنا جسمٌ بأطرافٍ وعضَلاتٍ حادّة.
غير أَنّني لا أرَى في أحضانه غيرَ المخيّلة،
هكذا يبتكر إقليم الحلم
ينابيعه وأشجارَهُ في تُرابٍ آخر.



سوق السمك

صَيْدِي هو نفسُه شَبكةٌ أتخبّط فيها –

أَنَا صَيّادَ المعنى.

*

رسالة

«... يَهْدأ البحر

كأنه لا يُريد أن يُصغيَ إلاّ لشطآنِهِ،

لِلنَّخيل والنّوارس.

أعشابٌ ونباتَاتٌ تقرأ كتابَ الشّمس.

عُمّالٌ ينصبون السَّلالم في حديقة الفندق –

ولم أسأل: لماذا؟

لا طعم للقهوة التي أَشربُها.

صوت منشارٍ يثقب أُذنَ الحديقة».

*

ميدان عرابي

لماذا تُرْجِئُ هذه الأبوابُ وهذه الطّرقُ

العملَ والسّفَر؟

أَعْطِنا خبزَنا –

عملاً، لا رجاءً ولا بُكاءً.

الريّاح مناجِمُ، ولا ذَهَبَ إلاّ الوقت.

هل سَتُحرِّكُ الإسكندريّة أعاصيرَها؟

*

مَزيجٌ من يَمامٍ ونَخْلٍ ومَوْجٍ،

هما ذراعا الإسكندريّة.

ولا أكادُ أشبعُ من التموّج بينهما:

إقامتي قصيرة،

ولا ترويني المخيّلة.

في الحَمّام، هذا الصّباح، أقحوانَةٌ

وضعتها المرأة الفتيّة الجميلة التي تَسهر



على نظافة غرفتي في الفندق.

وضعتها في أَصِيص بعنقٍ طويلٍ كعنق زرافة.

أقحوانة تبدو كأنّها جزءٌ من صدر الإسكندرية.

تجرّأتُ وسألت المرأة الجميلة عن اسمها.

قالت: أشجان.

أحدّق في هذه الأقحوانة. ألمسُها. أداعبها.

في لمحةٍ،

خُيّل إليّ أَنَّها تتحوّل إلى قصيدةٍ

تسبحُ في ماءِ الأصيص الصّغير،

ولم تُذكّرْني بجسد أوفيليا، طافياً على وَجْه الماء.

أقارن بين جسد القصيدة وهذه الأقحوانة،

وأتخيّل جسد المرأة التي أحبّها.

وفيما أرَى إلى وجه البحر تجعّده حركة الموج،

أرى إلى جسد الإسكندريّة

يكتسي بثوبٍ من سَعفِ النّخيل،

مُزركَش بِذهَب الشمس.

وأسأل الإسكندريّة:

إلى أيّ مَرْفأٍ توجّهين وجهكِ، الآن؟

*

أعودُ، مرّةً ثانيةً إلى فندق سيسيل،

لا لكي أرَى ظلالَ وينستون تشرشل،

أو سومرست موم،

أو جوزفين بيكر.

أعودُ لغايةٍ واحدة،

أن أسلّمَ على كرسيٍّ جلست عليه أم كلثوم،

وعلى آخر جلس عليه لورنس داريل.

هكذا أسلّم على نقيضين في مدينةٍ عاليةٍ

تتوحّد فيها النّقائِض الفنيّة العالية:

أمّ كلثوم وهي تشرب دمع الإسكندريّة،

ولورنس داريل وهو يشرب دمع التّاريخ،

في كؤوسٍ من فَخّارٍ واحد.



وها هما الآن، دمع الإسكندريّة ودمع التّاريخ،

ينبوعٌ واحِدٌ

يَرْفد ذلك النّهرَ الخفيّ العاشقَ

الذي يتدفّق في أحشائي.

رومل/مونتغمري

لمونتغمري وروملَ، اليوم، في الإسكندريّة،

سريرٌ واحِدٌ اسمه الموت،

ولهما وطنٌ واحدٌ اسمه التّاريخ.

*

تمثال بطليموس الأوّل

تسأل الإسكندريّة عن سيرابيس،

ذلك النّرجس الآخر

الذي غَرق في بحيرةٍ من دمع بطليموس الأوّل.

وكان يُحاول أن يخرجَ من نفسه،

لكي يزداد يقيناً بأنَّه لن يَعشقَ إلاّ نفسه،

بعدَ أن غَرِقَ،

أخذت زهرةُ النّرجس تطوفُ حول البحر،

لابسةً ثيابَ الحداد،

وكانت بيضاءَ، هذه المرّة.

*

سراديب الموتى في حيّ الأنفوشي

هنا، في هذه السّراديب، يلتقي الفراعنة واليونانيون في اللّغة الفنّية. في هذا اللّقاء نَشهدُ كيف «يموت الموت» كما يعبّر المتنبّي.

وكنتُ فيما أَتّجه إلى حيّ الأنفوشي، أردّد هذه الحكمة: «لاتَبدأْ أمراً تجهل كيف تُنهيه» – أردّدها دون أن أعرف السّبب، عارفاً أَنّها نقيضٌ للشعر. فالشّاعر يبدأ قصيدةً دون أن يعرف كيف يُنْهيها.

وخُيّل إليَّ كأنّني أرَى شَبَحَ كليوباطرة، وأَنّني سمعتُ صوتاً طالعاً من جهته يقول: «للغامض، وحده، أُسْلِمُ جسدي»، وصوتاً آخر يقول: «ما أشقَى وضوحكَ، أيّها الموت».

*

ميدان عرابي.. مرّة ثانية

ليس لي ما أقصّه على أحمد عرابي، في ميدانه، إلاّ الثّورات العربيّة الكثيرة التي فَتَحتْ أفراناً لا تعرف الخبز.

وقد تردّدتُ كثيراً في أَنْ أستجيبَ لرغبته وأنقل إحدى رسائله الأخيرة:

«أيّها الفلسطينيون،

العرب كلّهم يقولون لكم بصوتٍ واحد:

«طابَ نومكم في أَحْضانِ الشّظايا»».

*

سهرة

المرأة الكتابُ، والأنوثة الكتابة.

للنّجوم أحصنةٌ من الغيم الأبيض الموشّح

بالرّماديّ. اتركوا النّساءَ يرسمنَ دروبَ شهواتهنّ، واتركوا الرّجالَ لاقتفاءِ الرّسوم.

حَلبة الرّقص تفتح أحضانَها. افتحي ذراعيكِ، أيّتها العاشقة.

كواكبُ لا هويّةَ لها تتلألأ فيكِ. احضنْها، أيّها السَّهَرُ، وَاعْزفْها. التّرابُ، هذه اللّحظةَ، يُطارِد السّماء.

المرفأ الشرقي

مراكب خاشعة كأنّها تُصلّي.

«شَوّشْنَا البحرَ»، يقول المصلّون.

وثَمّة ريحٌ تبدو كأنّ لها ذاكرةً تقتل فيها القدرةَ حَتّى على تحريك الغيم.

كأنّ الفضاءَ مُقْعَدٌ ومَرْضُوضٌ.

كأنّ للشّمسِ جسَداً، ناحِلاً يكاد أن يَنْهدم.

*



المرفأ الغربيّ

ملائكة يلبسون الغيمَ، سائرينَ على الماء، أو هكذا شُبِّه لي.

في المرفأ مرفأ آخر تُرْسي فيه مراكب الفتوحات.

«أَنا عَسَلُ هذه المراكب»، يقول صوتٌ غامض.

*

سوق العطّارين.. مرّة ثانية

– ماذا يفعل هؤلاء العطّارون؟

– يبتكرون مزاميرَ ونايات لنساءٍ لا يُسْمَحُ بالنَّظر إلاَّ إلى أقدامهنّ.

نَاطحات سَحابٍ من الكمُّون والفلفل والقرفة وعجائب البَهارات.

مشهَدٌ كان سيُعجب أبا العبّاس المُرسي وصديقه

النبيّ دانيال.

«تذوّقوا عندنا، هنا، الآن، سندويشاً كَوْنيَّاً».

الخرشوف؟ نعم. الهليون؟ بعدُ. الجوز اللّوز الموز.

«أَصغوا إلى أصوات التّاريخ»، يقول شيخٌ يرفضُ

إلاّ أن يتحدّث حديثَ الشّباب:

«الجنس في الرأس، لا بين الفخذين».

«اليقين أفضلُ الثّياب، والحلمُ أجملُ الأَسِرّة».

«عودوا إلى السَّلف الصالح، تَصِحّوا».

شَطْحٌ يَرْتطِمُ بجدران الفراغ.

*

رسالة

«... لم يكن بين حاضركِ وحاضري أيّ جسرٍ، فبأيّ

سِرٍّ» التقينا؟ وكيف حدثَ أن يكون لجسدينا كلامٌ

واحدٌ، مع أَنّ لكلٍّ منّا لغته المختلفة؟ وكيف صَحَّ



في لقائِنا أن تكونَ الريّاح لنا، وهي ليست مُلْكَنا؟
وها نحن اليوم: شِفاهُنا ليست سُلّماً موسيقياً،
وقبلاتُنا ليست أنغاماً ؛ فمن أين لِدمي ودمكِ،
رقصهما الواحد؟
قولي لجسدكِ:
«أنتَ البحيرةُ المفردةُ لِمائِنا المُثَنَّى»

*

تمثال للا أحد

لم يَبْقَ له على الأرض إلاّ الظّلال.
بين الكواكب، تتنقّل جذورُهُ الآن.

*

جامع إبراهيم باشا

- «اِشرحْ لي، رجاءً، يا سيدي، كيف «يَسْتوي الرّحمنُ على العرش»؟ بأيّةِ كلماتٍ يُوصَفُ كرسيّه؟ ما حجمه؟ ما لونهُ؟ وهل صُنِعَ باليدِ، أم بالإرادة؟

- «لا مفرَّ لكم، في المستقبل، من أن تَضعوا السَّيفَ والعُنقَ في سلّةٍ واحدة، وَألاّ تُفَرِّقوا بين المَهْدِ واللَّحد».

*

المعمورة - الهدهد

هدهدٌ، جارٌ ليوسف زيدان - صديق جمال الغيطاني وصديقي.

هدهدٌ - مُحلّلٌ نفسيٌ يُصغي إلى حديث امرأةٍ



تتشبّهُ ببلقيس، غير أنَّها ترفض أن تقابل سليمان. رَفَعَ مِنقارَهُ الجميلَ في اتّجاه السّماء، وحاول أن يَسْتوضحَ النّجوم. كانت مطوّقةً بملائكةٍ من القطْن. يَضعُ الكونُ بيوضه الإلكترونيّة في أحداقهم التي تختبئ وراء القطن. وحده، ديكُ المَعْنى يَستطيع أن يدخلَ إلى تلك المخابئِ ويَصيح فيها.

كان يوسف زيدان يجلس هانِئاً في عرَبةِ المخيّلةِ، منجذباً إلى قُطْبٍ أنثويّ. لم يَشَأْ هذا القطب أن يكشفَ سِرّه إلاّ لجمال الغيطاني وأولئكَ الذين قُدَّتْ قُمصانُهم من جميع الجهات.

*

كورنيش الإسكندريّة

أستيقظُ. أنظرُ إلى البَحْر بعيني فَجْرٍ أَزْرق. يَحضر في خاطري سيّد درويش كمثل نَوْرسٍ هائم.
تحضر كليوباطرة كمثل غيمةٍ تكاد أن تُمطِر.
تَحضر هِيبَّاتيا كمثل شُعاعٍ لا تفارقهُ أمُّه الشّمس.
ولا أعرف كيف يختلط ما أَرَاهُ بما لا أراه.
النّهارُ، على كورنيش الإسكندريّة، يَقْفزُ من نوافَذِ العمارات، فيما يعلو صَخَبُ المارّة كمثلِ مادّةٍ سائلةٍ تَنْصهِرُ فيها الألسنةُ والأقدام، السيّارات وعربات الخَيْل.
شُرَطيٌّ هنا، هنالكَ يَسْهَرُ على السَّير، كما لو أَنّه يأخذ بِيَدَيْ طفلةٍ ضَيّعت طريقها إلى المدرسة.
كلاّ، ليس للنهار على كورنيش الإسكندريّة صديقٌ غير اللَّيل.
عينايَ الآن تطوفان في فضاء الكورنيش، كما لو



أَنّه حياتيَ نفسُها، لابسةً آخرَ الثّياب التي نَسجتها مخيّلتي.

مساءً، سأهمسُ في سَمْع هذا الفضاء أَنّ جَسدي سيظلّ طويلاً طويلاً يتموّج بين ذراعيه.

السَّلامْلِك

أَلديكِ ما تقولينه الآن، أيّتها الصّور الملكيّة التي تَتلألأُ بها الجدران؟

صمتكِ أكثرُ علوّاً من جميع الأصواتِ الأكثر علوّاً.

الحصادُ قليلٌ قليلٌ، والحقول جرداء جرداء.

لكن، يمكنكِ أن تتخيّلي صوراً أخرى فيكِ:

نِساءً يقطّرن كلامَ الأرض بين أثدائهنّ، وَيسِرْن مَحفوفاتٍ بكتبٍ خفيّة،

الشّمس نفسها، تبدو في غيابهنّ كأنّها تكَادُ أَنْ تَصْدأَ.

غَيّري أمكنتكِ، إن شئتِ. المائدة رحبةٌ، وفي القلب مكانٌ يَسعُ السّماوات والأرض.

وأنتم، أيّها العابرون، اسمعوا أنينَ الصّورةِ، فيما تخرجون من السَّلامْلِك، وَأصْغُوا إلى هدير المَعْنى.

*



كـلـيـوبـاطـرة.. أيـضـاً وأيـضـاً

عرفت كليوباطرة (ستّ نساءٍ قبلها حملن اسمها)،
كيف تنقّح نقطة الوَصْل بين الحضور والغيبِ وبين
الذّكورة والأنوثة،
الملكة الأخت الأمّ العَشيقة:
ماءُ الأبديّة يمتزج بِرُضابِها،
بِرُضابها كذلك تتبرَّك سُرَّةُ الفلَك.
كليوباطرة،
هل قلتِ لِلشّهواتِ أن تحملَ، هذه الليّلةَ، زهورَها
إلى فراشكِ؟
لكن، متى تعودينَ من هذه الهجرة إليهم – أولئك
الذين لم يَعودُوا يملكون حَتّى دموعهم؟
كليوباطرة .. ألفظ هذا الاسم، وأرَى ناراً تَنْبَجِسُ
منه، ناراً تلتهم السّماءَ كأَنّها قُبَّةٌ مِن القَشّ. ثمّ
أسألها:

كـلـيـوبـاطـرة، مَـتـى سـتـصـبـح الأرض مـثـلَـكِ سَـمـاءَ نفسـها؟

*



متحف كافافيس

الكونُ لغةٌ في الفَنّ. العالَمُ صَدفَةٌ لؤلؤتُها الشّعر.

مِن أيّ منجمٍ تجيئين، أيّتها الحياة؟

أسأل، وأجيبُ: كلاّ، لا يَمُوت إلاّ الموت.

إقامة

في أثناء إقامتي في الإسكندريّة،
خطرَ لي مراراً أن أتخيّلَ
أَنّني قابلت كليوباطرة، بلطفٍ خاصٍّ منها،
وأنني تجرّأت أن أَسألَها:
هل تسبحين في البحر، وفي أي مكانٍ من هذا الشاطئ الكريم؟
كيف كان يلتطم لهب جسدكِ بِحرير الماء؟
لماذا كان يطلعُ من بين نهديكِ
وردٌ في شَكْل أثداءٍ تتشبّه بِثدييكِ؟
وهذه الآثار التي تنطبع حولهما، وعلى العُنقِ،
والتي تبدو أَنّها آثار شفاهٍ وأَسْنَانٍ،
هل تعيدين قراءتَها؟
ولماذا تفضّلين ألاّ يكونَ غطاؤكِ في السّرير،
إِلاّ جسداً آخر؟



ولماذا كانت الشمس تستيقظ بعدكِ، فيما يحاول اللّيل جاهِداً أن يستبقيكِ في أحضانه؟

أتخيّل وأعرف أنّ الخيال ابنٌ للِشّهوة.

شهوتي هي أن أقيم ثانيةً بين الإسكندريّة وبينك وبيني، تاريخاً خاصاً لا مكانَ فيه إلاّ للحبّ.

«هـ»

غيمةٌ فوق أغادير أرغانا سبينوزا

كـانت الشّـمس تـنـزل مـن عـرَبـتِـهـا عـلـى شاطئ الأَطلسيّ.

قلتُ لرأسي:

إذاً، تحرَّرْ، واتركني إلى جسَدي.

كان المحيطُ يفتح كتابَ أهوائه،

واضِعاً خَدّه على أغادير.

كان رمل الشاطئ نسيجاً من خيوط ذهَبٍ له عُمْرُ التاريخ.



ولم يكن الموج كلاماً. كان موسيقى.

وبدا المساء صَيّاداً يتهيَّأُ لكي يرميَ شبكتَه،

وبدت السّماء امرأةً تخفّ، تنحني،

لكي تمسك بأطرافها.

رأيت زُرقةَ المحيطِ في ثَوْبٍ ليلكيٍّ

تكتب قصائدَ لا عناوين لَها،

وسمعت الموجَ يوشوش أعضائي:

«صَيّادٌ مِن أغادير،

سألَ الحوتَ عن يونس

أَنْكَرَ أن يكون ابتلعَهُ:

لم تره عينايَ، فكيف يراه جَوْفي؟

تَساءَل الحوت».

وفيما كنتُ أسمع، كان يُشَبّه لي: ليس في أغاديرَ

غير فينيقيا.

*

أغادِيرُ: سياحَةٌ باذخة. كلّ سائح واجهةٌ شَفّافَةٌ
لِغَرْبٍ أخضر. كلُّ سَائحةٍ حَبّةُ بَرَكة.
مع ذلك، بدَت لي السيّاحَةُ قيداً، فيما كان السّائح
يبدو شُعاعاً. دَواءٌ دَاءٌ؟ رُبّما سأبقى طويلاً لكي
أعرف أن أُصَالِحَ بين هذين القُطبين.
سائحون – لغاتٌ أخرى تتلاطَمُ في حنجرة
أغادير.
كنت، فيما أستكشفها مِثلهم، أكثرَ مَيْلاً إلى أماكنَ
تُتيحُ لي أن أقول: الجدارُ فيها غيمةٌ، والغبارُ فِضّة
الرّيح.

*

سيّارات الأجرة مسْرحُ إيماءات: الإضاءة أشعّة
شَمسٍ كمثل ألسنةٍ طويلةٍ من الجمر. مَثِّلْ حبّكَ،
أيّها الهواء. حَرّض قَدميَّ على السَّيْرِ في القصَبةِ –
القَلْعة. هنا، تنهض المدينة التي زُلْزِلَتْ، قبوراً،



أَكداساً من الحجارة كأنّها إشاراتُ مرورٍ إلى
جنَائِنَ تتدلّى من سَقْف الذَاكرة.
كلّ حَجرٍ طيْرٌ. والرّمادُ أفقٌ آخر.
وتلك هي الشّمسُ – الأمّ. شَمْسٌ تَسْكَرُ بِجسَدها.
قَلَّما تنامُ إلاّ في حضن إعلانٍ ضَخْمٍ يُمَوْمِئُ
العلاقةَ بين مدائن الجسَدِ ومحيطاتِ الرْغبة.
هُزّي إليكِ، يا سيّدة الفضاء، بجذع أغادير.
أنتِ النيّرة، فمن أين لكِ هذه الرّيبة التي تَلْتهِمُ
عينيكِ؟

*

تَنْغَرِسُ أغاديرُ في خاصرة الأَطْلسيّ، وليس في
جُبّتها غيرُ الأجنحة. لخطواتِها آثارٌ لا تَنطبعُ إلاّ
على لَوْح الضَّوء.
هكذا أتأكَّد أنّ أجملَ الطُّرقِ إليها هِي تلك التي لا
تُرى إلاّ بعين القَلب.

مرّة، في الشّارع، رأيت نجما يتسكّع في غابة اللّيل.

مرّة، قلت لزهرة شبه ذابلة، أمام الفندق، تتكئ على عمود أسمنتيّ: ماذا تفعلين هنا؟ غير أنّها لم تجب. كانت تقرأ كتاب الماء. ومرّة، حاولت أن أنقش اسمي على وجه محيطها. حطّ على كتفي اليمنى هدهدٌ أرسلته بلقيس. نعم، بلقيس، لا غيرها. وكانت تومئ لي خيامٌ تنزلق على بطن السّماء ليست إلاّ شهبا.

رملٌ مبلّلٌ بدمع التّاريخ، يسيل على خد المحيط.

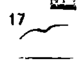
كانت يده ترسم طيورا تقبل من جهة الصّحراء.

كانت يد الصّحراء ترسم طيورا تجيء من جهات المحيط:

الزّبد حبر أبيض،

والفضاء لوحةٌ لا تكتمل.

في اللّوحة قوافل تترصد لكي تقبض على الهواء.



فيها حمحمة خيول،
وفيها بَخورٌ وتَمائِمُ لأرَغانا سبينوزا،
ولهذه حكومةٌ تترأَّسُها الشّمسُ وقُطعانُ الماعِز.

*

قلتُ للمحيط: لستَ إلاّ ذكورةً طاووسيّةً. وهاأنذا أوقظُ فيكَ أنوثةَ المادّة.

موسيقى أصدافٍ. تِلالُ رَمْلٍ يرقصُ مُتَسلّقاً على جِبال الشّمس. سرَطانَاتٌ تتعانَق. سلاحِفُ تَتكَوْكَب.

أمواجٌ تَلتهِمها الأَسِرّةُ التي ترقدُ فيها. وما ذلك الحلزونُ الأخضر الذي نَسِيَ أن يُخبئ قَرْنيه العاليين؟ فاجأَتْهُ قَبْضةُ الشّاطئ وأَسْلمتْهُ إلى اللّجّ.

– «مثلما تأخذُ قبضةُ الحاضر حلزونَ السيّاسة وتُسلمه إلى زبدَ الواقع»، قالت صديقةٌ، وأَسْتَحضِرُ

هذا القولَ، تحيّةً لها.

وقالت، تسألني الصّديقة نفسها:

- «النّار في كلّ صَوْبٍ. أين، إذاً، سَمَنْدلاَتُ الحريّة، تلك التي تحوّل النّار إلى ماء؟».

*

زَغَبٌ، ولا أجنحة. صَيّادون، ولا شِباك. هل عليَّ، إذاً، كمثل غيريَ، أن أختمَ حياتي كما بدأتُها: أغرسُ في رأسي قرون الأبجدية، وأناطح الورَق؟

*

أرغانا سبينوزا، – ذوقوا زيتها. من يذقْهُ يَتَحوّل إلى بستانٍ أحمر، ويسمع في كلّ غُصنٍ تغريداً:

«إن شئتَ أن تعرف المرأة حَقّاً،

تَذَوَّقْ جسدَها.

الجسد عِطْرُ الرُّوح.



الجسَدُ الفاتِحة والخاتمة».

*

رَقْصٌ، والفضاء حَلبة الرَّقص:

قم، أيّها المحيط،

وارقص بقدمي أغادير.

هامش

١- ذهبت إلى أغادير (٧ شباط ٢٠٠٧) بدعوةٍ من المركز الثقافي الفرنسي مع الصّديق الشاعر الفرنسي أندريه فيلتير، للمشاركة في احتفال خاصّ بذكرى الصّديق الراحل، الكاتب الشاعر جاك لاكاريير.

٢- أقيم لي لقاءٌ مع الطلاّب في كلية الآداب، بجامعة أغادير. شعرت هذه المرّة، أنّ المُناخَ السيّاسيّ - الثقافيّ. تغيّر عمّا كان عليه سابقاً، في أوساط الطّلبة . فهم الآن، يطرحون أسئلةً تذكّر بالغليان الإيديولوجيّ في جامعات المشرق العربيّ، في سبعينيات القرن المنصرم.

نزعة إسلامويّة، نزعة أمازيغيّة، تنضافان بقوّةٍ إلى لوحة

النّزعات القديمة. غير أنني لاحظتُ أن ثمّةَ شيئاً من القبول الضّمني بين هذه النزّعات جميعها، بضرورة الاعتراف بالتنوّع، والتعدديّة، وإذاً، بالعلاقات والحوارات الديمقراطية مِمّا كنّا نفتقده في المشرق العربي.

٣) «أرغانا سبينوزا» هو الاسم «العلمي» لشجرة الأرغانييه (Arganier) أو شجرة اللّوز البربريّ، كما يعرّبها «المنهل».

وتتميّز هذه الشجرة بأنها لا تنبت في أيّ بلدٍ في العالم إلاّ في المغرب العربي، وفي مناطقه الجنوبيّة، وحدَها.

يُستخرج من ثمار هذه الشجرة زيتٌ يعرف بخصائصه الصحيّة الكثيرة، والمتنوّعة. وأغادير من المدن التي تُشتهر بها.



«٩»

غيمةٌ فوق قَصّابين

«سأنامُ معكَ،

في نهايات كلّ شَهْرٍ،

بدءاً من اليوم»:

هذا شيءٌ مما كنتُ أتخيّل في طفولتي

أَنَّ أمّي تهمسُ به في أذن القمر،

قبل أن تصبحَ زوجةً لأبي.

كانت قَصّابين آنذاك تتمدّد وتَتنهَّد

بين ماءٍ يكاد أن ينضبَ،



وحَقْلٍ لا يكاد أن يثمر حَتّى ما يُساوِي
تعبَ زَرْعهِ وحَصاده.

قُبيلَ الغروب،
كانَت أصواتُ العَنادِلِ تملأ أَرْجاء بيتنا
بموسيقى خضراء.
وكان البيت، فيما يسمعُ،
يَصعد سُلّمَ الفَرح،
مُرْتطِماً بسَقْف الحزن.
كان أبي يزور أصدقاءه في القُرَى
يَسيرُ حاملاً عصاه المقوّسة الرأس،
وراءَ ظهره.
كنت أُسرّحُ بَصري في خطواته
إلى أن تُصبح ضباباً.
وكان، فيما يبتعد، يَمدّ أحياناً هذه العَصا
في اتّجاهي، كمثل شِهَابٍ نحيل.

ولم يكن يعرف أن يحملَ لي، عندما يعودُ،
أيّة هديّة.
يَصِل. يبادرني بالسؤال:
– «هل تَحسَّنَ خَطُّكَ؟
أتريد دائماً حبراً أسود؟».

مراراً،
كان يأخذني معه في زياراته.
كنت أشاهِدُ فَلاّحين يُحيّونه:
واحداً يتوقّف عن تَشْذيبِ تبْغهِ،
آخرَ يترك سِكَّة الفلاحة،
آخرَ يسأله: هل العمل صَلاةٌ أخرى؟
يشبه الفَلاّحون في قرانا أبراجاً تتنقّل
كما لو أنّهم يتحرّكون بأرجلهم وحدها.
تخرج من بين الأَثْلام في حقولهم
أشباحٌ تبدو كأنها تجيء من المستقبل.

فَلاّحون لا يخافون من الموت،

يخافون من الحياة.

لهم، عندما يتكلّمون، أصواتٌ داخلَ أَصْواتهم،

لا تُخاطِبُ إلاّ التّراب والعشب.

فلاّحون يهجسون أبداً بِالبذار.

فَلاّحون – فُرسانُ هواءٍ آخر،

وطواحينَ أخرى.

عندما كان أبي يتنزّه بين أشجار الزّيتون

التي غَرسَها بيديه،

كان يُخيّل إليَّ

أنّ خطواتهِ كائناتٌ أخرى:

نصفها الأوّل أعشابٌ ونباتات

ونصفها الثاني غيومٌ وأمطار.

هكذا، كان النّهار يتحوّل في خطواته

إلى سِرْبٍ من الفراشات

تتطايَرُ حول قناديل الشّمس الآخذةِ

في الغروب.

لا يتوقّف الفَلاّحون عن قراءة حظُوظِهم

في المعجمِ الكبير الذي يُسمّى العملَ، حيناً،

والفراغَ، حيناً آخر.

ادخلْ إلى أيِّ بيتٍ من بيوتهم،

وسوف يتأكّد لكَ أَنّ بينهم

وبين النّجوم،

في انقلاب الفُصولِ وفي تَواتُرِها،

تواطؤاً كريماً

لتحقيق سياسة الضَّوء.

لا تظهَرُ الملائكة في القرية إلا ليلاً،

وهي تخرج من كلّ شيء:

من الثّقوب والشّقوق،

من الأفق،



من الأودية والمغاور والينابيع،

من الأغصان المتشابكة،

ومن بين أفخاذ النّساء.

تخرجُ مَعها ظِلاَلٌ وأشباحٌ

لاتزال أسماؤها ترفض أن تستيقظَ

من نَوْمِها في فراش اللّغة.

كنتُ، تحتَ شجرة التّوت، أمام بيتنا،

لا أتوقّف عن الحلم ببِناءِ عرزالٍ بين نَهدْيها،

أقرأ فيه نهاراً وأنام ليلاً.

كانت تلك المرّة الأولى التي أحقّق فيها حلمي

الأوّل.

سمحت أمّي لي بالقراءة،

وكثيراً ما توسّطت أبي لكي تسمح لي كذلك بالنّوم،

غير أنني لم أنجح.

أحياناً، في غياب أبي،

كنت أرى إلى القمر ينزل على درَج اللّيل،

خطوةً خطوةً،

لكي ينام خِفيةً على ذراع أمّي.

وكثيراً مارأيت النُّجومَ تذوب فوقيَ

في قبّة السّماء،

كمثل قطعٍ من السّكّر في فنجان سَهري.

كان الجيرانُ

يحيطون بأبي كأنه نقطة الدّائرة.

يأتمّون به في الصّدق والمعرفة والصّلاة.

في الأشياء الأخرى، كانوا يأتمّون بغيره.

في ليل القرية،

تتصاعَدُ من الحقول والأودية والتّلال

أصواتٌ كمثل نداءاتٍ مبحوحة

في حنجرة زمنٍ غابر.

لم أكن تجاوزت الثانية عشرة

عندما بدأت الحرب العالمية الثانية

كان جَوُّ القَرْية

يبدو كمثل طَسْتٍ من النّحاس

يكسوهُ الصَّدأ.

تَعذَّبْنا. جُعنا.

كنّا نبحث في الحقولِ عن أعشابٍ

تحلّ محلّ البرغل والقمح والخبز.

هكذا، تعرّفت إلى رَحِمِ الطّبيعة ،

ذقتُها، وتَذوّقْتُ أعشابَها.

مَرّ على موت أبي أكثر من نصف قرن

فلماذا أشعرُ كأنّه لايزال حيّاً،

ولماذا أشعر كأنّه يموت كلّ يوم؟

حَقّاً، لا فراغَ في الحياة،

والذّاكرة هَواءُ التّاريخ.

لم أعرف جَدّيَ،
مات في الحرب العالمية الأولى، بعيداً، في اليَمن.
هل كان في أبي شيءٌ منه،
هل كان فيه شيء من جَدّتي التي لم أعرفها أيضاً؟

يُقال كان عنده فرسٌ،
غابَت عندما كنت أبدأ بالظُّهور.
رأيت سَرْجَها ولجامَها،
ورأيت المكان الذي كانت تُحمحم في أحضانه.

تلك الفَرَسُ هي الآنَ في فضائيَ
جزءٌ من الرِّيح.



«2»

«سياسة الضّوء»



«أ»

موسيقى تطلع من الخراب

«هنا ترقد الحرّية»،

أبحث، أترقّب، أسأل:

أين العرب الذين يؤمنون بالانبعاث؟

*

هو ذا شخصٌ يكبرُ بالنّظَر،

ويصغرُ بالعمل.

هو ذا آخر يَصغر بَالنّظر،

ويكبر بالعمل:

الحياة بينهما دائرةٌ من الرّمل.

*

لا يؤمن بالأشباح،

لماذا، إذاً، يخاف منها؟

*

«عُلِّق على خشبة»:

غير أنَّه علّق العالمَ على كتفيه،

*

«نبتَ العشب على لسانه»:

مثَلٌ قرويٌّ

يُفصح كثيراً عن ثقافة المدينة.

*

الحقيقة في الوعي العربيّ السّائد

يجب أن تكونَ «نافعةً»، دائماً.

هكذا تُقتل الحقائق الأكثر أهميّةً:

تلك «الضارّة»،

وتلك التي لا «نفَع» فيها.

*

«هذه غيومٌ تحجبني،

وهي كثيفةٌ وثقيلةٌ على جسدي.

مَنْ يخلّصني مِنها؟»،

تقولُ السَّماءُ شاكيةً للأرض.

*

لانزال نبني الجسورَ

فوق أنهارٍ جَفّت.

قلتُ: النّورسُ نجمٌ طائِرٌ،

فَاحتجَّ عليّ الموج.

*

أقرأ الواقع وأتساءَلُ حائراً:

أهو الشّجرةُ،

أم الرّيحُ التي تداعبها؟

الواقع؟ أَحْلامٌ في ثياب العمل.

*

يخرجُ العِطْرُ من رَحِمِ أمّه – الوردة

في سَفَرٍ لا عودةَ منه:

أتلك هي هجرة المعنى؟

*

سأعطي أذنيّ، هذا المساء،

لموسيقى تطلعُ من الخراب.

*

لم أَكسر نافذةً إلاّ لغايةٍ واحدة:

أن أجعلَها أكثرَ اتّساعاً

وأكثر وحدةً مع الأفق.

*

تستيقظ الحقيقةُ في الطبيعةِ، عاريةً،

في الكتابِ، تلبسُ ثيابَها.

*

لا تتوقّف الطّبيعة عن الكلام،

لكن، همساً.

عندما تنطق بصوتٍ عالٍ

تخرج من بين شفتيها كلمة واحدة:

الحريّة.

*

سُباتٌ يملأ عقولَ البشر وأجسادَهم:

ما أسعدَ الطُّغاة!

*

بكى جسَدُ الوقت

فيما كان يتمدّد على الفراشِ

الذي تتمدّد عليه المدينة العربيّة.

*

واقِعٌ تفرُّ منه الكلمات

كأنّها طيورٌ يَرُجُّهَا الذُّعر.

*

في ظلّ صَخْرةٍ،

يَتفيّأ ويتأمّل:

«لا بأسَ»، يقول في ذات نفسه،

«وعنديَ بابٌ لكلّ جهةٍ من الجهات الأرَبع»، –
سيزيفُ، أخيراً،
يَبتكر موسيقى لِلسّفَرِ مع الصَّخْر.

*

لا يحيا الضّوء إلاّ وحيداً:
في وحدةِ معَيّةٍ،
لا وحدة انفراد.
وحدةِ وَصْلٍ لا فَصل.

*

عَرْش الطّاغية ،
أوّلُه لَهَبٌ،
وآخره قَشّ.

*

لا تَجعلْ من المنفى وطناً:
المنفى مَنْفى لا غير،
وفي هذا جمالهُ المفْرَد.

*

مِن كَرَمِ الموج،
عندما يَسْتضيفُكَ في بيتهِ،
أن يَهدمَهُ عليك.

*

الحلمُ والسَّفَرُ
أخوانِ من أبوين مختلفيْنِ،
وأمٍّ واحدة.

*

جَحيمٌ
كمثلِ شجَرةٍ قِشْرتها الجنّة.

*

للسياسة لغةٌ
لا يقدر الهواء نفسه أن يصنعَ منها
إلاّ الغُبار.

*

الفقرُ أميرُ الجائعين.

*

العروبـة، القوميـة، الوحدة:

ألفـاظٌ تتكرّر، اليوم،

برهـانـاً علـى وجود العَبث.

*

كيف لمن يُولَدُ نـافذةً

أن يعيش ويموتَ مخنوقـاً؟

*

على سُلّم الفـاجعة،

يَصعد إلى حبّه عِطْرُ التّـاريخ.

*

شوارِعُ –

جراحٌ في عنُقِ الوَقْت.

*

كيف يكون حكيمـاً –

هو الذي لا يَعرف سَريرَ الجنون؟

*

أرسل الرّبيعُ زهرةً إلى أبيه الزَّمن،
فعادت إليه لابسةً عباءةَ الخريف.

*

تُعطيه الحياةُ أكثر مِمّا يطلب:
ألهذا عليه أن يتقبَّل النَّقد،
وأن يُعانِقَ الغَيْرة؟

*

ليست أَنفاسُ هذا الزّمن
إلاّ دخانَ الحرائق
التي تشتعلُ في أعماقه.

*

كان آلهة اليونان وأولئك الذين سَبقوهم
أو عاصروهم،
يهبطون من سماواتهم على الأرض،
لكي يَسْتَرِقوا النّظَر إلى امرأةٍ تستحمّ،
أو لكي يقبّلوا يدَها.

لماذا، إذاً، يُصِرّ بعضهم على أَنّ الألوهةَ
موجودةٌ في حركةٍ دائمةٍ من الصُّعود؟
الهبوطُ أجملُ وَرْدةٍ في يَد الألوهة.

*

الحياةُ كتابٌ:
في الفرَح، يُقْرَأُ من الياءِ إلى الألف.
في الحزن، يُقْرأ من الألِف إلى الياء.

*

يتزوَّجُ اليقين،
ويظلُّ يَعشق الشكّ.

*

يَرغب لكي لا يُخطئ،
يُخطئ لكي يزدادَ رغبةً.

*

إن كان المبصر «أعمى» في بيت الظلام
فكيف يكون «بصيراً» في بيت الضّوء؟

*

بعض الكتّاب يجرّون الكلماتِ على الورَق،
كأنّهم يجرّون قُطعاناً.

*

أحياناً،
لكي يُحسِنَ الدّخولَ في غابة المعنى،
لا يَسلُك إلاّ الطّرقَ التي تَسلكها الرّيح.

*

كَلاّ، لا معنى للموت إلاّ إذا كان مؤنَّثاً:
عذراً، يا ذكورة اللّغة العربيّة.

*

ماذا يصنع بتلك الرّايات التي سار تحتها، وهتفَ
لها، وهتفَ باسمِها؟
الرّايات التي أنكرها وأنكرته، والتي احتّج عليها
الأفقُ والهواء، ولاتزال ترفرف؟
ماذا يفعل، إذاً، بذلك الجزء من نفسه التي لايزال
رِباطُ الذكرى يشدُّها إليه؟

هل يهجره، وكيف؟

هل يقتله، وكيف؟

بِرباطٍ آخر؟

ألن يكونَ لهذا الرّباط راياتٌ أخرى، يكون لها ذكرى أخرى، يكون لها هَجْرٌ أو قتلٌ آخر؟

بالنسيان؟

لكن، أليس النّسيان ذكرى صامتة، محجّبة؟

أم يقولُ:

النّفسُ محيطٌ يَتّسع لكلّ شيءٍ ويبقى هو هو؟

تأتي الرّايات، تخفق، يلفظُها المحيطُ، ويبقى هو هو.

وماذا يقول، قبل ذلك، لتلك الوجوه الصّديقة التي كانت تحيط بوجهه، تحت تلك الرّايات، وللقلوب التي خفقت رفيقةً لقلبه؟

أيقولُ: انفصلتُ عنكِ، متعمّداً، أو هارباً، أو مُرْهقاً؟
أم يقول: كُنّا نسيرُ معاً على طريقٍ واحدة، في أفقٍ واحد، غيرَ أَنّ الطّريقَ اضطربت، والأفقَ أظلمَ، وفجأةً رأيتُ نفسي وحيداً، لا أعرف كيف، وأخذتنيَ الوحدة، لا أذكر كيف، واخترت الوحدة وخيبتَها؟

الوحدة –الخيبة!

أليس في الوحدة – الخيبة رغبةٌ لها دَمٌ آخَرُ، وشرايينُ أخرى؟



«ب»

من بعيدٍ
ودون أن تراها

لا يُعرَفُ الجسَدُ،

إلاّ بالجسد.

*

هل تريد أن تعرف

كم هي قريبةٌ إليكَ، أيّها الحبّ؟

إذاً، نَادِها مِن بعيدٍ

ودونَ أن تراها.

*

الزَّمنُ أَنت وهي معاً – في ذلك المكان،

تحت لحافٍ واحد.

إذاً، عَلِّم جسدكَ أن يظلَّ طفلاً.

لا شيخوخةَ إلاّ في الرّأس.

*

أعجبُ ما في ذلك العاشق

أَنّه لا يجلس إلاّ على مقعدٍ في الظلّ،

حالماً بامرأةٍ،

لا تجلسُ إلاّ في الضّوء.

*

عندما تبكي

يَطيبُ لدمعها أن يسقيَ الورد.

*

حَتّى عندما يختنقُ الحبّ،

لا يخرجُ من حنجرته،

غيرُ الهواء الكريم.

*

عندما يتزيّن سريرُها باللّيل،

لا يتوقّف عن سؤال الوسادة:

لماذا يبدو النَّهارُ كمثل القفَص؟

*

قَبْرُ الحبّ

وردةٌ في عُرْوةِ الموت.

*

«إن كانت الرّوحُ تكره الجسد

فلماذا لا تقيم إلاّ فيه؟»:

تتساءل العاشقة، ولا تنتظر جواباً.

*

في جسد المرأة نشيدٌ أرضيٌّ

تقرؤه السّماءُ بلا نهاية.

*

امرأةٌ عاشقة؟

إذاً،

السّوادُ نفسُه، وكلّ شيء
هو عندها، لغةٌ في الضّوء.

*

في الجمالِ والحبّ إشعاعٌ
هو، وحده، القادرُ
على أن يطمسَ إشعاعَ الكلام.

*

لا تعرف شفتاه
كيف تَنْتميانِ إليه،
إلاّ عندما تنطبقانِ على شفتيها.

*

قولي كيف يقدر
أَنْ يُميّز
بين شواطئِ جسدكِ وأَغْوارِه؟

*

القَمرُ، واضِعاً رأسه على كتفِ اللّيل:

تلك هي وسادتُها.

*

اسألي اللّيلَ لماذا شَحُبَ وجههُ
عندما فاجأكِ، أمسِ،
تتحدّثين مع الفَجْر؟

*

نعم، رأيتُ اللّيلَ في سريرها
يَنْسَدِلُ على كتفيها وصَدْرِها
كأنّه جدائِلُ،
تُعقَدُ وتُحَلُّ بيد الحبّ.
نعم، رأيت الفَجْرَ
يَسْتيقظُ بين ذراعيها.

*

في النَّشوة الجنسيّة،
يقول الجسَدُ كلّ شَيء،
يَقولُ «الرُّوحَ» نفسَها.

*

ليس الزَّمنُ إلا دُخاناً

يتصاعَدُ من نار الحبّ.

*

ما يَعْقِدُهُ غَيمُ الحبّ،

يحلّه مَطَرُ الرّغبة.

*



«جـ»

هُــوَ

يَنقدُ مَا حوله. ينقد العالم.

عليه، إذاً، أن يبدأ دائماً بنقد نفسه،

وَأَلاّ يكُفَّ عن هذا النّقد.

*

يَصْرخُ أحياناً لغايةٍ واحدة:

أن يُطَمْئِنَ وَحْدتَه.

*

يشغلُ أفكارهم، كما لو أنّه شيطانٌ آخر:

يرفضونه،

لكنّه يُقيم في عمق أعماقهم.

*

منَ العمل تجيء سعادتُه،

لا مِنَ الحظّ.

*

يُفضّل الإقامةَ في الأمكنة البعيدة عن مسقط رأسه:

ألأنّه في هذه الأمكنة،

يُحْسِنُ رؤية نفسه، ويُحسِنُ معرفتها؟

*

تَبنَّى أفكاراً اعتقدَ أَنّها تُعمّقُ فهمه للعالم،

وتجعل حياته أفضل وأجمل.

لكن، سُرْعانَ ما تحوّلت هذه الأفكار

إلى أَنْفاقٍ تَسدُّ الآفاق.

*

عاشِقٌ لنفسه،

وعاشِقُ نفسه يظلّ مطمئنّاً:

لا أحَدٌ يغَارُ منه،

لا أحَدٌ ينافسه.

*

إن كان له بيتٌ فهو الحبُّ،

إن كان له وَطنٌ فهو الشّعر.

*

يُحبّ المعجمَ لغاية واحدة:

يذكّره بالكلماتِ التي لا يَذكرها.

*

حَقْلٌ في رأسه منذورٌ لِلصّيد،

حَقْلٌ في جسده منذورٌ لطيور الأفكار المهاجرة.

*

نَزلَ غَضَبُ السَّماء على أرضهِ،

فَاخضرّت حقولُها.

*

يعرف الغيمَ حَقّاً،

لهذا يَعيش مسكوناً، بالقلَق.

*

عندما يقرأ نَصّاً عظيماً

يشعر كأنَّ هذا النّصَّ «ينتصر» عليه:

ما أَغْنَى، وما أجملَ هذه «الهزيمة»!

«هـ»

العبـارة

اِذهبْ إلى العبـارة واسأَلْـها بتواضـع:

«مـاذا ينقصنـي»؟

أخـاطبكَ أنتَ يـا مَنْ تقول:

لا شأن لي إلا بـالدِّين.

*

وحده الشّعر-

يُولَدُ من حيث لا يُنْتظَر.

*

أيّـها الشّـاعر،

أتسمّي هذه «روايةً»،

وهي لا «تَرْوي»، في سياقِها،

ظمأَ الكلام الذي تُفصح بهِ،

ولا ظَمأَ الشّيء الذي تقولُه؟

*

صحيحٌ ما يقوله ريلكه:

«نَبتعدُ عن اللّغة،

بِقَدْرِ ما نقترب من الواقع».

*

قَطراتٌ من المطر تجري الآن

على زجاج نافذتي.

تبدو القَطرة كأنّها مركبٌ صغيرٌ

في شكل قُبّةٍ مدوّرة:

مراكبُ تَتّجه إلى شاطئ النّافذة،

لكي تتحطَّمَ عليه.

في كلّ مركبٍ

بَحّارٌ يشبه نقطةً من الدَّمع.

*

النَّجاحُ، غالباً، حجاب.

*

لا يُحبّ من الأشياء إلاّ ما يقدر على امتلاكه،
لا يحبّ من الأشخاص إلاّ من كان
على صورته ومِثاله:
عُصابٌ آخَر–
مَدْح الذّات، وهَجْو الآخر.
هل يمكن أن تكون هذه صورةَ الشّاعر؟

*

– ما التّجريبُ في الكتابة؟
– هو أَنْ نحقّق شيئاً لم يُحقَّق سابقاً،
بطريقةٍ لم تُستَخدم سابقاً،
ونتائجَ غيرَ منتظرة.
الكتابة هي، إذاً، تحديداً: تَجْريب.

*

صوت الجرَس يَجيء من «الآلة»،
وصَداهُ يَجيء من «الطّبيعة»:
تَحارُ أَيُّهما الأكثرُ جمالاً؟

*

قُلِ «اللاّشيءَ» على نَحْوٍ مُفْرَد
وسوفَ تَرى أَنّك تقول «الشّيءَ» نَفْسَهُ:
«عِلْمٌ» لا يَصحّ إلاّ في الشّعر.

*

الشعر «غواية»، الدّين «هداية»:
تقليدٌ قديمٌ يونانيّ – إسلاميّ.
مع ذلك، لم يعشق العرَبُ من اللّغة
شيئاً كما عشقوا شِعرَها.

*

هل الشعر المتصالِحُ مع العالم،
يقدر أن يرَى العالمَ، حقّاً؟

*

«نبحث عن اللاّنهاية، ولا نَعثر إلاّ على الأشياء»:

يقول نوفاليس.

في الموسيقى يتجسَّد هذا البحث، ونعثر فيه على ما يَتخطَّى الأشياء.

لا الموسيقى وحدَها، منظوراً إليها، بمعناها التّقني الحَصْريّ، بآلاتها، الوتريّة وغير الوتريّة.

وإنّما يتجسّد كذلك في موسيقى الكلمات، في الشعر على نَحْوٍ خاصّ.

هذا ما أدركه العرَبُ القُدامَى بالفطرة.

رأوا أَنّ الطّبيعةَ أمُّ الموسيقى، أنّ الإنسانَ، وَبخاصّةٍ الشّاعر، تجسيدُها الحيّ. فالصّوت الإنسانيّ «جامِعٌ» موسيقيّ، تَتداخَلُ فيه وَتتآلَفُ أصوات العنَاصر، وأَصواتُ الكائنات.

رُبّما لهذا، يربطُ العرب، عضويّاً، بين الشعر

والصّوت: إنشاداً وغناءً، نغماً ووزناً. كأنّما تنقلب الطّبيعة في الشّعر، وتتحوّل إلى طَبْع.

هكذا كانت القصيدة في وعي العرب القُدامى فَنّاً يضع كَلماتها في أشكالٍ وأَنْساقٍ وَزْنيّةٍ، إيقاعيّة. ووفقاً لذلك، لا مكانَ للشعر، بالنسبة إليهم، خارجَ الموسيقى. فالقصيدة، عندهم، هي، جوهريّاً وقبل كلّ شيءٍ، بنيةٌ موسيقيّة.

في هذا التّوكيد على موسيقيّة الشّعر، كانوا ينظرون إلى القصيدة بوصفها نافذةً أو شُرْفةً يُطلّ منها القارئ على اللاّنهاية – في الطّبيعة وفي الإنسان.

الموسيقى تُحرّر الكلمات من ثقلها الماديّ، وتحوّلها إلى أجنحة، شاحنةً إِيّاها بأصواتٍ وأنغامٍ وأبعادٍ تخلقُ في الإنسان الشّعور بوحدته الكاملة مع الوجود، كما لو أَنّه يقيم فيه – في

سيمفونيّةٍ واحدة، في الوحدة الكيانيّةِ بين الكلمة والإيقاع واللاّنهاية.

*

العبارة الجميلةُ
هي، في ذاتها،
حقيقةٌ جميلة.

*

حاولَ الشّاعر، مرّةً، أن يفهم الرّيح،
فكادتِ العاصفة أن تَجْرِفه.

*

لا يخاف إلاّ مما يَجْري ورَاءه:
لماذا، إذاً،
لا يَجري إلاّ وراءَ ما يخاف منه؟

*

أهناكَ مكانٌ يَتّسع لجميع الرّغباتِ،
غيرُ اللّغة؟

*

السّماء تَلعبُ النَّرد

والأرضُ هي الخاسرة:

ألَن تَستيقظَ أيّها الشّاعر العربيّ؟

*

اِصعَدْ في الضّوء لكي تقرأ الآخرين،

واهبطْ فيه لكي تقرأَ نفسكَ.

*

لا ينكسرُ

إلاّ أمامَ الأشياء التي يقدرُ أن يكسرَها.

رأيتُ وردةً في حديقة بيتنا،

تمدّ يديها إلى الرّيح،

لكي تلتقطَ أوراقَها المتساقطة.

*

يقرأ الشّاعر، كلّ يوم، صفحاتٍ عديدةً

من كتاب الشّمس،

مع ذلك، تظلّ حياته معتمة.

*

تَزوّجتِ الأرَضُ الغيمَ،
فركعَ الماء خاشِعاً.

*

ترُى، ما كان الطّعام
الذي هَيّأته حوّاء لآدمَ
في عشائِهما الأوّل؟

*

كيف تخرج دائرةٌ مشعّةٌ مِن مُربّعٍ مُظلم؟
أهذه هي الكتابة؟

*

الفضاءُ نفسُه،
لا يعرف ولا يقدرُ
أن يضع الطُّيورَ
في قفص الرّيح.

*

كتبتِ الوردة وصيّتَها:
هل ستعرفُ، أيها القارئ، تأويلَها؟

«هـ»

العين

قفَصاً كانَ ذلك النّهار،

وكانَ الضّوء يتأوّه:

كنت أتعلّم كيف يحدثُ للبكاء أن يكونَ حبراً للفكر،

وأن يكون مادّةً للعمل.

كنت أُلاحِظُ كيف يغطّ البشَرُ أقلامهم في محابر

الموت،

ويكتبون سِيرَةَ العصر.

وكنتُ أختبرُ كيف تُجرَحُ عينُ الفَجْرِ،

بِسكّينٍ من الدّمع.

*



ماضِياً،

كنّا نتخيّل النُّجوم ونقرؤها بعين الطّبيعة وعين الطَّبْع،

لِكَيْ نصعدَ إليها في أَسِرّتها،

أو لِكَيْ تهبطَ إلينا ، في سرير تُرابِنا الكريم.

*

أَحْلامِيَ كلّها مَرْئيّةٌ،

إلاّ تلك التي أعقدُها مع لَيْلِ العَيْن.

*

أين، إذاً، يذهب الحلمُ أيَّتها العين؟

وما هذه الدُّروبُ التي يفتحها لقوافلَ تتسوّل الشّمس،

وتُؤاخي بين الغبار والضّوء؟

*

ذلك النّبعُ في قريتنا،

يكادُ أن يُغلِقَ آخر نوافذه.

وهاهو يتهيَّأُ لكي يُصبحَ شَحّاذاً أعمى.

*

أمسِ،

عندما التقيتُ بها، وانْسكبَتْ عيناي على جسَدها،

كنت قد جمعتُ كلّ ما استطعتُ

من مِقصَّات النّهار،

وخَبّأتها بعيداً عن جدائل اللّيل.

*

أتخيّل دائماً أنّني أسبح في تلك البُحيرات العاشقة

التي تتموّج تحت حواجب النساء في القرية التي

جئتُ منها.

ما أَبْهى تلك البحيرات – العيون،

ما أجملَ صَاحباتهِنّ:

يتركن لأيّامِهنّ أن تتدلَّى

على أكتافهنَّ كمثل المناديل.

*

حَقّاً، أيّها الشعر، أيّها العين العالية،
ليست الأيّام إلاّ غيوماً تتحرّك في عين اللّيل.

*

منذ طفولتي،
أتعوّد أن أفتح في كلّ مكانٍ أتعرّف إليه،
نوافذ – عيوناً،
تدخل إليها وتخرجُ منها
خلائِقُ المعنى.

*

لم يَبق للزمن بيتٌ يُؤاوينا،
إلاّ عينُه.

*

أَتبادَلُ مع عينيها رسائلَ
تعمل معي
لكي أتغلّبَ على العواصف
التي تَرجُّ أحشائي.

*

لِعطر المرأةِ التي أحبّها،

عينان تطوفان حولها.

*

للحلم عينٌ

تَكْتحِلُ بحلمٍ آخر.

*





«9»

الرّسالة

يكتبُ إليها وقَلَّما يكتب رسالةً إلى امرأة عاشقة.

لمثل هذه الرّسائل أجنحةٌ

تَمتلئُ بالغُبارِ امتلاءَها بالهواء.

هل يَنْشرحُ لها بَحرُ اللّقالقِ في فَارُو (١)،

والغيومُ التي تقلّد خطواتِ الشاعر؟

وثّمة عاشقاتٌ كمثل اللّقالقِ

يَحضُنّ بيوضَهُنَّ على ذُروَاتِ الأبراج،

قَوائمهنّ صوارٍ



وكلُّ عنقٍ شراع.

هل يسألها في رسالته:
ماذا يحدثُ للبشر حولَها وحوله؟
بين يَديْ كلٍّ منهم أكثرُ من سِكّين.
على كَتِفَيْ كلٍّ منهم أكثرُ من كبش.
وفي الطّريق دَمٌ
يتحدّث مع الذّاكرةِ، حيناً
ومع الطّفولةِ، حيناً آخر.

هَلْ يقصُّ عليها
كيف جَرّبَ يوماً أن يضعَ السَّماءَ في حنجرته،
وكادَ أن يختنق؟
أو كيف يُحِبّ أن يضيّع الوقتُ قدميهِ
في سَريرها؟
أو كيف يَنْقلِبُ الماء إلى ورَدْةٍ،

أينما توجَّه نَرْسيس،

وتُصبح الوردةُ جسداً؟

شفتاه تَطْفحانِ أسئلةً

ولماذا لا يترك الأسئلة

في خصامٍ دائمٍ مع الأجوبة؟

*** لكن،**

هل يُقال ذلك في رسالةٍ

إلى امرأةٍ عاشقة؟

ماذا يفعل إن كانت المرأة العاشقة محيطاً،

وكانتِ اللُّغة بيتَ المحيط؟

ماذا يفعل إن كانت كلّ كلمةٍ

في معجم أيّامهِ، امرأةً؟

ما أشدّ حاجتَهُ، الآن، إلى أن يكرّرَ:



النّورُ عُرْيٌ، وكلّ غطاءٍ عَمَاء.

ما أشدّ حاجته، الآن، إلى أن يُعلن:

في النّور – الجِنْسِ،

يشعر كأَنّه مولودٌ قَبل الأبجديّة.

وأنتِ، أيّتها السّماء،

لماذا لا يَفْرح لسانكِ إلاّ بالموت؟

وهل الشَّفَتانِ ضِفَّتَانِ

لِنَهْرٍ غير مرئيّ؟

وماذا، إذاً،

لو صار الأَلِفُ الحَرْفَ الأخيرَ

مِن الأبجديّة؟

ما أشدّ حاجته الآنَ،

إلى أن يُلامِسَ عُنقَ الرّيح.

وما هذه الأَرض التي قُدِّست،

والتي ينتمي إليها؟

البَحْرُ نفسُه مَيّتٌ فيها.

*** لكن،**

هل يُقال ذلك في رسالةٍ

إلى امرأةٍ أحبَّها،

أو إلى امرأةٍ يُحبّها؟

اسْتَسْلَم، هذه اللّيلة،(٢) إلى النّوم

كما لو أَنّه يتنشَّقُ رائحتَها.

قَرأ أنفاسَهُ،

وهي تَنْطبع على الوسادة.

هل الفرَاغُ غيابٌ، حَقّاً؟

هلِ الغيابُ فَراغٌ، حَقّاً؟

يظنّ أَنْها تراه الآن،

وتلك هي بِدْعَةُ العين الثالثة.



في الغيـابِ،

ينشقّ المكـان نصفين،

والزّمَنُ يفرُّ من النّوافذ.

ذئبٌ يطلعُ من الذِّكريـات،

ويتسلَّل في غابةِ أوجاعه.

كـان القمر يُسرّح قُطعانَه،

وكـانت أجسـادٌ في حديقة النّجوم

يَسيلُ أَحدُهـا في الآخر.

بعضـهـا يُنـافِسُ الدّمَ،

وبـعضُـهـا يَغـارُ من المـاء.

تَنـهَضُ حواسُّ الغبطة،

وَيْنفَرِطُ عِقد السُّلالات.

اهْرُبي، أيتـهـا الأجسـادُ،

من تلك الأرواح التـي تقدّسـهـا الكتب.

وأنتَ، أيّها الجميلُ إيروسُ،

ماذا يوحشكَ الآن؟

٭ لكن،

هل يقال ذلك في رسالةٍ

تحبّ أن تنام

بين نَهدي امرأةٍ يُحبّها؟

لا تسأليهِ أن يكتبَ إليكِ:

ألم يَقلْ للشمس أن تمزجَ اسْمَكِ بضوئها؟

الآنَ، يَشغلُه شيءٌ آخر:

أن يُعلّم النّهارَ كيف يتعطّر بِكِ،

واللّيلَ كيف تكونينَ قميصاً له.

ابتكري عتاباً آخَر.

– «أتريد قَهوةً»؟



سألته الجميلةُ، نادلةُ المقهى، ولم يُجِبْها.

أنتِ الآنَ مُحيطٌ وكلّه صَوْتٌ يَعْلو:
ما أَحبَّ الغرَق إلى أَعضائي.
لا ينتشي. لا يَملُّ من طلب النَشوة.
مِن أين، إذاً، هذا القَشُّ الذي يتَقصَّفُ بين أحشائه؟
ولا يُريد أن يكون قاضِياً.
ولا يُريد أن يَنْخرِطَ، هو الآثِم،
حَتّى في سِلْكِ الإِثمْ.
شيءٌ ما يَعْصفُ بالغشاء الذي يُغلِّف أعصابَه،
وتَكادُ أن تُفْسِدَ صُورتَه،
أنتَ، أيّها الحِبْرُ الذي يتدفَّقُ
من جُرح المعنى.

اهدرْ، اهدرْ بين أَنْقاضهِ، يا صَخَبَ اللّغة،
عنده ورَقٌ،

وليس عنده إلاّ مَا لاَ يُكْتَب.

*** لكن،**

هل يُقال ذلك في رسالةٍ

إلى امرأةٍ يُحبّها؟

يهطلُ المطَرُ في البندقيّة كأنّه يَصعَدُ من الأرض،

البحر في كل مكانٍ بَحْرٌ إلاّ فيها.

ظَنّي أَنّ ليلَها مسمارٌ،

والنَّهْدَ حجَرٌ،

وما نسمّيه الفضاءَ

ليس إلاّ زاويةً.

بلَى، رأيتُ النَّهارَ في البندقيّةِ



يكتب أسئلتَهُ ببياض زَبَدٍ أَسْود،

وليست هناك أجوبةٌ،

إلاّ مَقْرونةً بتآبين المَوْتى.

يمكن السّائح، سواءٌ كان أنيساً أو مُوحِشاً،

أن يتعلَّم من هذه التآبين

أَنَّ القمرَ فرَسٌ

وأَنّه يقدر أن يَمتطيهُ،

ويدخلَ على المرأة التي يُحبّها،

أَنّى شاءَ، ومَتى شاء.

السَّائح! كائِنٌ لا اسْمَ له، وله الأسماء كلُّها.

يَدهُ اليُمنى تُمسكُ بقرن الحَلْوى، أو بزجاجة الكولا،

ويَدهُ اليُسرى تَحفر وجه الكنيسة

الإيوانيّة الباذخة: سان – مارك.

يترك؛ جسمه في مكانٍ، ورأسَهُ في مكانٍ،

وثيابَهُ في مكان،

وقَلَّما يُميّز بين الظلّ والشّمس.

لا يَرى السّماء تنزل إليهِ، إلاّ في شَكْل قُبّعة،

ويَطبخُ أَيّامَهُ كمثل أسماكٍ غيرِ طازَجةٍ،

فوق نار اللّحظة،

وليس واضحاً إن كان ذكَراً أو أُنثى.

إنّها فينيسيا، البندقيّةُ العربيّة،

كلَماتُ التّكوين الأولى تتمدَّد فوق الماء

محلولةَ الشَّعر، –

أزقّةً،

قنواتٍ،

جداولَ،

إِصطبلاتٍ،

والماءُ نَسيجٌ لِيفيٌّ أَسْود.

لا الشّمس هنا هي الشّمس،



ولا القَمر القمر:
دولابـان يَتَدحْرجَان.

مـا أشدّ بطشَ هذه المدينـة،
لا تتوقّـف، بِـآلاتِها وصلواتِها،
عن تَنْكيسِ راياتِ المعنـى.
ولا شيءَ يتحـرّكُ فيـها
إلاّ المَنِيُّ والمَعِدة.

عفواً، سـان – مـارك.
عفواً، تيسيـان.
عفواً، تـانتوريـه.
المـاء في هذه المدينـة هـو نفسـه الموت.

***لكن،**

كيف يمكن أن يقال هذا كلّه

في رسالةٍ إلى امرأةٍ عاشقة؟

لن أنسجَ للبندقيّة منديلاً للوداع.

وأنتِ، أيّتها الرّسالة،

عن أيّ

كلمةٍ تبحثين،

لكي تكونَ خاتِمةً لكِ؟

---

(١) كتب هذا النصّ في فتراتٍ متقطّعة:
في فارو (البرتغال) وبرلين ٢٥-٣١ أيار ٢٠٠٦، وفي باليرمو (صقلية) وفينيسيا ٢٥-٣٠ حزيران ٢٠٠٦.
(٢) ٢٦ حزيران ٢٠٠٦، فيلّلا إيجيا، باليرمو.

للشــــاعر

(آثرنا، اختصاراً، أن نكتفي بالإشارة إلى الطبعتين الأولى، والأخيرة)

شـــعر

- قصــائــد أولى، ط١، دار مجلــة شــعـر، بيروت، ١٩٥٧؛ طــبــعــة جـديـدة، دار الآداب، بيروت ١٩٨٨.
- أوراق في الريح، ط١، دار مجلة شعر، بيروت ١٩٥٨؛ طــبــعــة جـديـدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.
- أغاني مهيار الدمشقي، ط١، دار مجلة شعر، بيروت، ١٩٦١؛ طــبــعــة جـديـدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.
- كتاب التحولات والهجرة في أقاليم النهار والليل، ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٥؛ طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت ١٩٨٨.



- المسرح والمرايا، ط١، دار الآداب، بيروت، ١٩٦٨؛ طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.
- وقت بين الرماد والورد، ط١، دار العودة، بيروت، ١٩٧٠؛ طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٠.
- هذا هو اسمي، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٠. مفرد بصيغة الجمع، ط١، دار العودة،بيروت، ١٩٧٧؛ طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.
- كتاب القصائد الخمس، ط١، دار العودة، بيروت ١٩٧٧، طبعة جديدة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.
- كتاب الحصار، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٥.
- شهوة تتقدم في خرائط المادة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٧.
- احتفاءً بالأشياء الواضحة الغامضة، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٨.
- أبجدية ثانية، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٩٤.

- **الكتاب I**، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٥.
- **الكتاب II**، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٨.
- **الكتاب III**، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٢.
- **فهرس لأعمال الريح**، دار النهار، بيروت، ١٩٩٨.
- **تنبَّأ أيها الأعمى**، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٣.
- **أوَّلُ الجسد آخِرُ البحر**، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٣.
- **تاريخ يتمزق في جسد امرأة**، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٧.
- **الأعمال الشعرية الكاملة**

ديوان أدونيس،

ط١، دار العودة، بيروت، ١٩٧١؛

ط٢، دار العودة، بيروت، ١٩٧٥؛

ط٣، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩.

- **الأعمال الشعرية الكاملة**،

دار العودة، بيروت، ١٩٨٥.

الطبعة الخامسة، دار العودة، بيروت، ١٩٨٨.

- **الأعمال الشعرية الكاملة**، طبعة جديدة، دار المدى، دمشق، ١٩٩٦.



دراسات

- مقدمة للشعر العربي، ط١، دار العودة، بيروت، ١٩٧١؛ ط٥، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٦.
- زمن الشعر، ط١، دار العودة، بيروت، ١٩٧٢؛ ط ٦ مزيدة ومنقّحة، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٥.
- الثابت والمتحول، بحث في الاتباع والإبداع عند العرب، الطبعة الثامنة (طبعة جديدة، مزيدة ومنقحة، في أربعة أجزاء):
  ١- الأصول،
  ٢- تأصيل الأصول،
  ٣- صدمة الحداثة وسلطة الموروث الديني،
  ٤- صدمة الحداثة وسلطة الموروث الشعري.دار الساقي، ٢٠٠١.
- فاتحة لنهايات القرن، ط ١، دار العودة، بيروت ١٩٨٠؛ ط٢، دار النهار، بيروت، ١٩٩٨.
- سياسة الشعر، دار الآداب، بيروت. ١٩٨٥.
- الشعرية العربية، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٥.
- كلام البدايات، دار الآداب، بيروت ١٩٨٩.

- الصوفية والسوريالية، دار الساقي، بيروت، ١٩٩٢.
- النص القرآني وآفاق الكتابة، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٣.
- النظام والكلام، دار الآداب، بيروت، ١٩٩٣.
- ها أنت أيها الوقت (سيرة شعرية ثقافية)، دار الآداب، بيروت ١٩٩٣.
- موسيقى الحوت الأزرق، دار الآداب، بيروت، ٢٠٠٢.
- المحيط الأسود، دار الساقي، بيروت، ٢٠٠٦.

مختارات

- مختارات من شعر يوسف الخال، دار مجلة شعر، بيروت، ١٩٦٢.
- ديوان الشعر العربي،

الكتاب الأول، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٤.

الكتاب الثاني، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٦٤.

الكتاب الثالث، المكتبة العصرية، بيروت، ١٩٨٦.

ديوان الشعر العربي (ثلاثة أجزاء)، طبعة جديدة، دار المدى، دمشق، ١٩٩٦.

- مختارات من شعر السياب (مع مقدمة)، دار



الآداب، بيروت، ١٩٦٧.

- مختارات من شعر شوقي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢.
- مختارات من شعر الرصافي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢.
- مختارات من الكواكبي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢.
- مختارات من محمد عبده (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣.
- مختارات من شعر الزهاوي (مع مقدمة)، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣.
- مختارات من الإمام محمد بن عبدالوهاب، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٣.

(الكتب الستة والأخيرة اختيرت وقُدِّم لها بالتعاون مع خالدة سعيد).

ترجمات:

- الأعمال المسرحية لجورج شحادة:

حكاية فاسكو، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٢.

السيد بوبل، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٢.
مهاجر بريسبان، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٣.
البنفسج، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٥.
السفر، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٥.
سهرة الأمثال، وزارة الإعلام، الكويت، ١٩٧٥.

- **مسرح جورج شحادة**، طبعة جديدة بالعربية والفرنسية، دار النهار، بيروت.
- **الأعمال الشعرية الكاملة لسان- جون بيرس**، منارات، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٦؛ طبعة جديدة، دار المدى، دمشق. ١٩٩٩.
- **منفى وقصائد أخرى**، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٨.
- **الأعمال الشعرية الكاملة لإيف بونفوا**، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٦.
- **مسرح راسين**:

فيدر ومأساة طيبة أو الشقيقان العدوان، وزارةالإعلام، الكويت، ١٩٧٩.

- **كتاب التحولات**، أوفيد، المجمّع الثقافي،



أبوظبي، ٢٠٠٢.

■ الأرض الملتهبة، دومينيك دو فيليبان، دار النهار، بيروت، ٢٠٠٤.

*



كتاب دبي الثقافية
سلسلة دورية تصدر عن
مجلة «دبي الثقافية»

١- «نجيب محفوظ.. قيصر الرواية العربية» - ١٩٩٩.

٢- «سلطان العويس.. شمس الثقافة التي لا تغيب» - ٢٠٠٠.

٣- «المبدعون» - النصوص الفائزة في مسابقة «المبدعون» - الدورة الأولى - ٢٠٠١.

٤- «نازك الملائكة.. أميرة الشعر الحديث» - ٢٠٠١.

٥- «الرنين» - المجموعة الشعرية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للشاعر السوري أيمن إبراهيم معروف - ٢٠٠٢.

٦- «مدارج الرحيل» - الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للروائي المصري خالد أحمد السيد - ٢٠٠٢.

٧- «غشاوة» - المجموعة القصصية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للقاصة الإماراتية عائشة الزعابي - ٢٠٠٢.

٨- «حمد أبو شهاب في ذاكرة الإمارات» - ٢٠٠٢.

٩- «ليالي الحصار.. أحزان عراقية» - شعر - نصوص لشعراء العراق - فبراير ٢٠٠٣.

١٠- «السماء تخبّئ أجراسها» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للشاعر المصري بشير رفعت - ٢٠٠٤.

١١- «تيار هواء» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتبة المغربية حنان درقاوي - ٢٠٠٤.

١٢- «الانكسار» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتب السوري عامر الدبك - ٢٠٠٤.

١٣- «البار الأمريكي» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب العراقي وارد بدر السالم.

١٤- «إلى الأبد.. و... يوم» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب السوري عادل محمود.



١٥- «قمر أور» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للشاعر العراقي عامر عاصي جبار..

١٦- «مقالات رجاء النقاش» في «دبي الثقافية» ٢٠٠٨.

١٧- ليس الماء وحده جواباً عن العطش - أدونيس -أكتوبر ٢٠٠٨

ملاحظة :
سلسلة كتاب «دبي الثقافية» كانت تصدر أولاً تحت اسم كتاب «الصدى» ثم أصدر رئيس التحرير الأستاذ سيف المري قراراً بتغيير اسم السلسلة بعد صدور مجلة «دبي الثقافية» في مطلع أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٤. ليصبح اسمها «كتاب دبي الثقافية».



كولاج من إبداع أدونيس

دأبت مجلة «دبي الثقافية» منذ صدورها على استكتاب الكبار، والاحتفاء بالكبار. ولا يعني ذلك أنها لا تمدّ يدها، وتفتح صفحاتها، وتريق مدادها للجيل القادم، بل إنها في حقيقة الأمر، وجدت من أجل المستقبل. ولكن أية مجلة ثقافية، وأية ثقافة لا تحتفي بكبارها تكون ثقافة هشّة، وسريعة الزوال.

ونحن حين نقدّم هذا الإصدار الذي نعدّه باكورة إنتاجنا الثقافي للمرحلة المقبلة، فإننا نبدؤه بأحد أهم رموز التجديد في اللغة الشعرية، والخطاب الشعري، فاختيارنا للشاعر الكبير الأستاذ أدونيس لم يأتِ اعتباطاً أو من فراغ، بل عن عظيم اقتناع بما قدّمه خلال مرحلة طويلة من العطاء الثرّ، والإبداع المميز والمتميز.

سيف المري

تصدر عن دار
الصدى
للصحافة والنشر والتوزيع